رواية

مكتبة ياسمين

لوران غوديه

سَالينا

المنَافي الثّلاثة

ترجمة:
أيف كادوري ـ حازم عبيدو

أوّل الأمر، ثمّة يوم البدء ذاك، البعيد، حيث بعدَ انتظارٍ طَويل يصلُ الفارس في النهاية وسط قيظِ الصحراء، مُحافظاً على إيقاعِ سيره، فلا يتريّث ولا يتَعجّل. ما عادَ يفصله عن الجمعِ سوى نحو مئة مترٍ. يحاول كلّ واحدٍ تحديد هويّته ولكن ما مِن أحدٍ تعرّفَ على شاراتهِ. لم يرَ أحد من عشيرة دجيمْبَا سابقاً حقائب جلديّة مماثلة لتلك التي يضعها على حصانهِ ولا حتّى في السوق الكبير لكامنغاسا البعيدة. لا بدّ أنّه آتٍ منْ مكان أبعدَ منَ البقاعِ المعروفة. معفّراً بالتراب، ولقلّةِ حركاته يُظنُّ أنَّ جسدهُ موثق إلى حصانه، ربّما كانَ محكوماً بالتجوال على هذا النحو منذ أشهرٍ، ماضياً حسْبَ مشيئةِ ركوبته. كم عمره؟ لا أحد يستطيع تقدير ذلك. يتقدّم الرجل. لوهلة، يظنُّ آل دجيمْبَا أنّه سيجتازهم دون أن ينبس بكلمة، دون أن يفعل شيئاً، كما لو أنّ وجودهم واهٍ لا قيمة له، ولكن ليس هذا ما يفعلُه. إذْ يتوقّف على مسافة عشر خطوات من سيسُوكو دجيمْبَا. بوسع الجميع الآن أن يرى بوضوحٍ في جوف ذراعه اليسرى رضيعاً ملفوفاً بأقْمِطَتِهِ تتعالى منه الصرخات. لم يكفّ عن الصُّراخ. كائن صغير من لحم ودم يبكي، بقوّة، دون كلل أو ملل، منذ أيّام، منذ أسابيع، منذ أنْ رحلَ هذا الرجلُ الغريب، لهي معجزة حتّى أنَّ طول بكائه لم ينهك جسده.

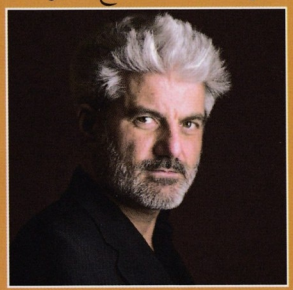

يتواصَلُ صمتُ الفارس. ثمّ على مَهلٍ، يمرّر الفارس ساقاً فوق مؤخرة حصانه ويترجّل، وهو لا يزال حاملاً الطفلَ بيده. يتقدّم بضعَ خطواتٍ إلى أنْ يصبحَ في منتصفِ المسافة بين سيسُوكو وركوبته، يضَعُ على الأرض لُفافةَ القِماشِ التي ما زالت تبكي، ثمّ يمتطي حِصانهُ مجدّداً دون أن ينتظر ما الذي سيحدث، ودون أنْ ينبس بكلمة -فلربّما لو نطقها كانت لغتها غريبة ولن يتمكّنَ أحدٌ من مُحادثته بها، أو ربّما ما من لغة هناكَ في البقاعِ التي أتى منها. على مهل، ينطلقُ مُجدّداً عائداً أدراجه، مُخلّفاً وراءهُ لأوّل مرّة منذ أيّام، أو ربّما أسابيع، صرخات الطفل الذي هجرَه للتوّ.

789933 617462

مكتبة ياسمين

telegram @
yasmeenbook

سَالينا

المنَافي الثَّلاثة

رواية

اسم المؤلف: لوران غوديه

عنوان الكتاب: سَالينا: المنَافي الثّلاثة

ترجمها عن الفرنسية: أيف كادوري - حازم عبيدو

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2022

Author: **Laurent Gaude**

Title: **Salina: les trois exils**

Translate from French: **Ève Cadoret - Hazem Obedo**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2022**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Salina © Actes Sud, 2018

مكتبة ياسمين

telegram @
yasmeenbook

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800

+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 + 961 706 15017

+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

لوران غوديه

telegram @
yasmeenbook

سَالينا

المنَافي الثَّلاثة

ترجمها عن الفرنسية :

أيف كادوري - حازم عبيدو

إلى أمّي،
إلى ابنتي،
للذي ينتقل بينهما،
ويَعيشُ ويورّث.

telegram @
yasmeenbook

مقدّمة

«... في النهاية نجد أنفسنا أمام الكتابة» على هذا النحو يُجيب لوران غوديه (المولود في باريس سنة 1972) عن سؤال حولَ تنوّع انشغالاته الأدبيّة والأجناسِ التي كتبَ بها، من مسرح ورواية وشعر وقصّة قصيرة، إذ يعتبرها جميعها تنتمي إلى نهر واحد، نهر الكتابة. أنجزَ عدّة دراسات في الآداب الحديثة، كما يؤلّف، على نحو متواصل، نصوصاً للأوبريت منذ العام 2008 بالتعاون مع موسيقيّين معاصرين، وقد أصدرَ كتباً مصوّرة منها: «أنا الكلب- الشفقة» بالتعاون مع المصوّر أوان كيم، و«المدينة في الأسفل» غايل تورين.

يتّصِف أدبه بحيويّة تجعله على صلةٍ وثيقة مع العالم. يتفتَّحُ نصّه على أرضيّة انتماء مركّب تُحدّد معالمهُ وسماته الأبرز نوازع إنسانيّة ترفض السكوت عمّا يجري من انتهاكات، «غدَا هذا الكوكب صغيراً ونحن مجبرون على النظر حولنا» فلا مكان للعزلة، إذ يراها نوع من الهزيمة، وهذا الخيار الأخلاقيّ هو ما دفعه للاهتمام بمسألة اللاجئين وغوانتانامو والتعاون مع منظمة العفو الدوليّة بهذا الشأن، وبحقّ الإنسان أنْ يعرف. فضلاً عن قيامه برحلات وريبورتاجات، منذ 2013، في بقاع مختلفةٍ تتجسّد فيها المكابدات وقسوة البشر على البشر، من مخيّم «كوركوسك» في العراق إلى كاليه و«غراند سينت» في شمال فرنسا وغيرها، مقتفياً أثرَ عالم لا يلبثُ أنْ يغدو أشدَّ وحشيّة.

لوران غوديه منْ أبرزِ أدباء فرنسا المعاصرين، بدأ حياته الأدبيّة بالكتابةِ

للمسرح فكتب العديد من النصوص المسرحيّة، أوّلها كان «أونسيس الغاضب» سنة 1997، والتي أخرجها يانيس كوكوس وقدّمت على المسرح الوطني بستراسبورغ. ظلَّ بعيداً عن الرواية حتّى سنة 2001، سنة صدور روايته «صرَخات»، ثمّ رواية «موت الملك تسونغور» في العام الذي يليه والتي تُعدّ أوّل نجاح حقيقيّ إذ حصلَت سنة صدورها على جائزة «غونكور للطلبة»، وجائزة «الكتبيّون» سنة 2003، فضلاً عن إدراجها ضمن المنهج التعليميّ لمرحلتي الإعداديّة والثانويّة، كما قدّمت على خشبات مسارح عدّة، أبرزها العرضُ الذي أخرجهُ شارلي بروزوني، ثمّ توّجت روايته «شمس آل سكورتا» بجائزة غونكور سنة 2004، والتي تُعدّ أرفع جائزة أدبيّة فرنسيّة. إلّا أنَّ ما أثارتهُ رواية «إلدورادو» سنة 2006، عن المهاجرين غير الشرعيّين الذين وصلوا لامبدوزا، من قضايا يهجس بها الإنسان المعاصر من قبيل الهويّة والانتماء والرحيل واللقاء بالآخر والتعلّق بالبلد، إضافة إلى الرغبة وما تنطوي عليه من عنفٍ وتمزّق...، كانت من القوّة بحيث يصعبُ تجنّبها أو الفكاك من أسئلتها وسطَ عالمٍ مشوّش ومرتبك، وستَغدو هذه الثيمات حاضرة في أعماله اللاحقة، كما رأينا في رواية «أنصتوا إلى هزائمنا» سنة 2016، إذ تتساير عدّة سرديّات من مراحل تاريخيّة مختلفة تتَصاعد على شكل نشيد تراجيديّ واحد يتردَّد صداه في مصائر البشر على خلاف أزمنتهم وأماكنهم، كما تبرز بشكل أوضح في عمله الشعريّ الأول «من دم ونور» سنة 2017، الذي ألهمتها به أسفاره ومخيّمات اللجوء التي زارها، والذي يمنحُ فيه (وفقاً لتعبير أنطوان جوكي) صوتاً شعريّاً لمن لا صوت لهم. يقول غوديه في مقدّمة مجموعته الشعريّة: «أريد شعراً يُكتب بقياس الإنسان، يحدّق في عيني الفجيعة، مُدركاً أنَّ التعبيرَ عن السقوطِ هو طريقة للبقاء واقفين على أقدامنا، شعرٌ يسير خلف موكب المهزومين الطويل حاملاً في داخله من العار بقدْر ما يحمل من مشاعر الإخاء، شعر يعرفُ اللامساواة الجائرة بين البشَر أمام ضراوة الشرّ».

يُمكنُ مقاربة أعمال الكاتبِ بنصوص التراجيديا الكلاسيكيّة، إذ نرى أبطالاً غامِضين، مُنشطرينَ بين الواجبِ والمشاعر الشخصيّة، بين القوّة

والحب، يُلاحقهم العار ضمنَ مسارٍ قدريّ لا يرحم تقِفُ الشخصيّات إزاءه عاجزة. كما تحضرُ الثيماتُ الكبرى (الموت، الانتقام، الحب) بوصفها مُحفّزات تدفع الشخصيّات نحو مصائرها، ومساحة للتأمّل في شروطِ الإنسان التي لم ينقصها تاريخه الطويل. علاوةً على أنّ الخصائِص الدراميّة تمنح أعماله الروائيّة بُعداً مسرحيّاً حاسماً، وقرّاء غوديه يعرفون صلته الوثيقة بهذا الفن، كما أنَّ المشاهِد القصيرة في رواياته التي تسلّط الضوء على عددٍ قليل من الشخصيّات تُحيلنا إلى فصولِ المسرحيّةِ وتقسيمات مشاهدها. وعلى العموم، شخصيّات غوديه كائنات كلاميّة، تتوضّحُ أثناء مطوّلات الخطاب المباشر داخلَ بنية السرد.

ينهَضُ أدب غوديه على دعامتين؛ أولهما الواقع المعاصر، بكل تعقيداته وتناقضاته وأبعاده الكونيّة، الذي يزداد جنوناً وعنفاً، والعنف هنا أيضاً ثيمة أساسيّة في معظم أعمال الكاتب ولكن ليسَ لغاية مدحِه، وإنّما لتجسيدِ جمال الإنسان الواقفِ في مهبّه، الإنسان الذي ينجح، رَغم كلّ شيء، أنْ يبقى شامخاً وقويّاً في لحظات المحن. أمّا دعامته الثانية فهي الخيال الذي تشحذهُ حكايات الموروث الشعبيّ (الإفريقيّ على الأخصّ) وتمدّه بطاقةٍ مُدهشة بدت واضحةً في رواية «موت الملك تسونغور» وفي الرواية المترجمة هنا، إذ أنَّ الإطار الزمنيّ غير المُحدّد يُسهم في منح الرواية طابع الحكاية كما ترسَّخت في الأذهان ويضَع القارئ أمامَ نصّ مدوّخ يبدو معتّقاً بأزمانٍ ومخيلات شتّى، وربّما المنبت المسرحيّ لغوديه هو مَنْ ولّد لديه هذا الميل في إعادة بعضٍ من الشفاهيّة إلى النصّ المكتوب، وهذا يبرّر في أحد جوانبه أنَّ معظم رواياته وجدَت طريقها إلى خشبة المسرح.

نرى الخيال، أيضاً، مصقولاً بنفحاتِ الملاحمِ الكبرى التي حفرَت عميقاً في الثقافة الإنسانيّة، إذ أنَّ سماتها الأسلوبيّة حاضرة في الكتاب الذي بين أيدينا، كما نجده في أجزاء من «أنصتوا إلى هزائمنا» وفي رواية «الموكب الوحيد» و«موت الملك تسونغور»، إذ تظهرُ المآثر الحربيّة والشخصيّات البطوليّة وعنف المعارك، ويُطلَق العنان للانفعالات والاشتباكات الدمويّة بلغةٍ ثريّة وحيويّة، تزيدُ كثافتها صيغُ المبالغة والاستعارةِ والجمع والتفضيل

اللصيقة بهذا الفن. كما أنّ الكاتب لا يتردّد في إدراج الأسطورة عند أحداثٍ مفصليّة مُستعيناً بقوّة دلالتها، مهما بدَت منافيةً للعقل، إذ أنَّ للعمل الأدبيّ سياق وعقل مختلف يفرضُهُ البناء والدلالة، والحاجة إلى التكثيف وتوتير السرد. ففي رواية «سالينا، المنافي الثلاثة»، على سبيل المثال، لا يمكن أنْ نمنعَ أنفسنا في الجزء الخاص بولادة "كوراكومبا" في تسعة أيّام عن التفكير بولادة أثينا من رأسِ زيوس مُعتمرةً خوذتها وسلاحها بيدها. أو نتَجنّب مقاربة نزال كوراكومبا ومومويه أو نزال ساكو ودانْغا في «موت الملك تسونغور» بصراع روميوس وروميولوس، والفكرة التي مفادها «بأنّه حين يتواجهُ أخوان، فلن يؤدي ذلك إلّا إلى موتهما معاً بالطعنةِ ذاتها».

ضمن هذا الإطار الثقافي والجمالي والإنساني يستعيدُ لوران غوديه سالينا، المرأة ذات الدموع والملح، الشخصيّة المسرحيّة التي ظهرت سنة 2003 في عمل سردي روائيّ سنة 2018، «سالينا، المنافي الثلاثة» والتي نال عنها الجائزة الكبرى للرواية مُتمازجة الثقافات سنة 2019؛ لغة مُترفَة ونصّ مُدهش يشتَملُ على معظم الأسباب التي صنَعت للوران غوديه تفرّده الأدبيّ، إذ يبرزُ ذلكَ الجدل الخلّاق بين الخيال المنفتح والتجارب التي قادَته إليها مواقفه إزاء ما يدور في العالم. فعلى الرَّغم من أنَّ أحداث الرواية تجري في عصر قديم مُتخيّل إلّا أنّنا نجد واقع اللاجئين في المخيّمات التي زارها هو من ينتقي الكلمات ويرسم ملامح شخصيّاته: «... في لحظة كتابة سالينا استعدت ما رأيت... أولئك الأشخاص الذين يعيشون على الفتات، تلك الحيوات المنسيّة، المطحونة بالبؤس على نحو لا يصدَّق، ثمّة نظرات لا تغادر رأسي، كلمات محفورة في ذهني، وحين أعمل، أعمل مع كلّ ذلك».

سالينا، قبل أيّ شيء امرأة غريبة. أحضرها فارس من مكان بعيد لا يعلم أحد عنه شيئاً، وتركها دون تفسير عندَ مدخل قرية آل دجيمبا ومضى. تنتهي القصّة ولا أحد يعلم موطنها ولا هي تعلم، وهذا مكوّن أساسيّ في هويّتها سيثير تساؤل الانتماء في أطوار حياتها المختلفة، سواء داخل القرية أو في المنفى. كأنَّ حياة بأكملها لم تكن سوى خسوفٍ أو صدى لعنة. تتبنّاها

امرأة من القرية، تدعى ماماميالا، وتكبر سالينا الصغيرة الغريبة -المهجورة وتشهدُ مصيراً حافلاً بالشقاء، فحين تغدو فتيّة سيزوّجونها إلى الابن البكر لآل دجيمبا الذي لا تحبّه وتحبّ أخاه الأصغر، لا يكتفي الابن البكر بالزواج منها، بل يغتصبها ليلة زفافها. عندَ هذه النقطة يجري التحوّل وتنقلب حياتها إلى الكراهية والحقد، تبدأ دائرة العنف ويغدو هاجسها الانتقام من آل دجيمبا واستعادة الحياة التي سرقت منها، استعادة الأخ الذي تحبّه لتستأنف حياتها من حيث توقّفت. يكتسي السرد طابعاً من العنف والتطيّر، ويحدث ما هو فائق للطبيعة، إذ تترك غضبَها ينفجر، وهي تبتعد عن القرية، غضبها الذي يكبر ويتجسّد بهيئة محارب ثمّ لا يلبث أن يُطالبَ بالقصاص، إذ أنَّ حياة سالينا، التي أبعدَها الجميع، ليست سوى سجلّ حافل بالمحن: الزواج الإجباري، الحرب، المنافي المتعاقبة، الإهانة، والعزلة. صفحات قصيرة مكتوبة بقوّة محمومة عن الثأر وكراهية الآخر التي يراها غوديه ثيمة جديرة بالاهتمام والتأمّل إذ تتقاطع مع زمننا الراهن الذي لا تلبث شعارات الكراهية فيه أن تعلو أكثر فأكثر.

تمرّ السنين ومعها الطعم المرّ للانتصار، يأتي زمن الشيخوخة والخيبة، ثمّة قسوة الصحراء، مصائر النساء، وترتعش الرغبات...

تموت سالينا. ويبتكرُ الابن أثناء الغسل الجنائزيّ طقوساً جديدة تكون مصحوبةً بحركاتٍ مؤثرة صادرة عن قوّة عاطفته. ولكن لكي تستحقَّ الدفن اللائق وتفتح المقبرةُ المقدَّسة أبوابها لها ينبغي على الابن أن يروي حكايةَ أمّه، ومعيار نجاح الحكاية في إقناع المقبرة-الجزيرة بفتح أبوابها صدق الحكاية وجمالها وإلّا ستظلّ موصدة، إذ وصلها كثيرون من قبل وظلّت مغلقةً في وجوههم «عائلات بأسرها أبحرت ووصلت السور، مِنَ الذين يحكون القليل إذْ يكتشفون بأنّهم لا يعلمون شيئاً، والذين يختلفون حول الحكايةِ فيتشاجرون على الطريق، والذين يكذبون أو يُجمّلون...»، ولكن كيفَ يمكن أن نروي حكاية شخص ما، شخص أحببناه؟ في الرواية يروي الابن سيرةَ أمه، أو يحاول أنْ يحكيها، يعتقد الكاتبُ أنّ قوّة الأسطورة تكمن هنا، في هذا الصوت المغرق في القدم، الجوهريّ في طبيعتنا البشريّة، حين

نخسر أحداً ونحاولُ إيجاد الكلمات التي تعبّر عن مسيرةِ حياته فلا نجد. دأبُ غوديه أنْ يؤسطر الحكاية ليردم فجواتها، فهل سيروق ذلك للمقبرة، فتفتح أبوابها أمامَ جثمان سالينا؟

في هذا النص الكثيف والمضيء، المكتوب بحنكة حكّاء، يعطي الروائي ريشته نفحة ملحمية متحرّرة من الزمن، مثل صلاة أزليّة، تعلو من قلب أفريقيا القديمة، وتضعنا أمام حكاية رائعة، حكاية حب وكراهية، تجعلُ أصداءَ كوامن عميقة في داخلنا تتردّد.

حازم عبيدو – أيف كادوري

يَومُ البدء

في مُسْتَهلّ حياتها تماماً، في أيّامِ البدء تلك عندما كانتِ المادّة لا تزال مُبهَمة، عندما كانَ كلّ شيء مُجرّد جسَد، مُجرّد أصواتٍ مكتومة ونبضَات وعرُوق تخفق وأنفاس تُفتّش عن مسالكها، في تلك الساعات حيثُ الحياة ليست مؤكّدةً بعد، حيثُ يمكن لكلّ شيء أنْ يتوقّف وينطفئ، تُدوّي تلك الصرخة، التي لفرطِ بعدها، لفرطِ غرابتها يمكنُ الظنّ أنَّ الجبل يئنُّ وقد سَئمَ طول مكوثه. تَرفعُ النساءُ رؤوسهنَّ ويلبثنَ، قلقات، يتردّدن، لسنَ متأكّداتٍ من أنهنّ سمعنَ جيّداً، ومع ذلك يتكرّر الصوت: ثمّةَ في البعيد، ناحيةَ جبل تَدْمى الذي لا يجتازه أحد، طفلٌ يبكي. هل تَستشعرُ نِساءُ قبيلة دجيمْبَا في تلك البرهة بكلّ ما تنطوي عليه الصرخة؟ بما تختزنه من دماء، من تشنجات، من أجساد مكدومة، ومن نفيٍ وغضب؟ هل يشعرنَ أنّ أمراً يبدأ مع هذهِ الصرخة الشديدة الصغر، التي تَكادُ لا تميّز، أمراً لن يكفَّ عن أنْ يكبرَ إلى أن يقلبَ كلّ شيء؟

رويداً رويداً، يغدو البكاءُ أشدّ وضوحاً. ما عادَ هناكَ شكّ: الرضيع يقترب. يلتقي الرجالُ والنساء عندَ مدخل القريةِ لانتظارِ القادم. تمضي هنيهات طويلة حتّى يظهر فارس. يتقدّم بتريّثٍ، يختفي أحياناً وفقَ تعرّجات الدرب، يتقدَّم وبالفعلِ منه يصدر بُكاء الطفل.

سيسُوكو دجيمْبَا، زعيم القرية، يُنادي مُحاربيه. يجتمعون، معصوبي العضلات واثقي النظرات. لا خشية في قلوبهم. إذ لا يتعدّى الأمرُ في

نظرهم إرسالَ أحدٍ منْ قِبل الآلهة وتنبغي مُواجهة هذا الحدث. فحضروا جميعاً بأبهى الحُلَل: جلابيب طويلة بألوان فاقِعة، ومن الزَّنانير تتدلّى سيوف التاكوبا سلاح الأسلاف المقدّس. وبينما تهبّ ريح الصحراء الساخنة جاعلةً رايات القريةِ تخفق، يلبثُ الرجال بلا حراكٍ. هم يعلمونَ كم سيستَغرقُ وصول الفارسِ إليهم فينتَظرون.

أوّل الأمر، ثمّة يوم البدء ذاك، البعيد، حيث بعدَ انتظارٍ طَويل يصلُ الفارس في النهاية وسط قيظِ الصحراء، مُحافظاً على إيقاعِ سيره، فلا يتريّث ولا يتَعجّل. ما عادَ يفصله عن الجمعِ سوى نحو مئة مترٍ. يحاول كلّ واحدٍ تحديد هويّته ولكن ما مِن أحدٍ تعرّفَ على شاراته. لم يرَ أحد من عشيرة دجيمْبَا سابقاً حقائب جلديّة مماثلة لتلك التي يضعها على حصانهِ ولا حتّى في السوق الكبير لكامنغاسا البعيدة. لا بدّ أنّه آتٍ منْ مكان أبعدَ منَ البقاعِ المعروفة. معفّراً بالتراب، ولقلّةِ حركاته يُظنُّ أنَّ جسدهُ موثق إلى حصانه، ربّما كانَ محكوماً بالتجوال على هذا النحو منذ أشهرٍ، ماضياً حسْبَ مشيئةِ ركوبته. كم عمره؟ لا أحد يستطيع تقدير ذلك. يتقدّم الرجل. لوهلة، يظنُّ آل دجيمْبَا أنّه سيجتازهم دون أن ينبس بكلمة، دون أن يفعل شيئاً، كما لو أنّ وجودهم واهٍ لا قيمة له، ولكن ليس هذا ما يفعلُه. إذْ يتوقّف على مسافة عشر خطوات من سيسُوكو دجيمْبَا. بوسع الجميع الآن أن يرى بوضوحٍ في جوف ذراعه اليسرى رضيعاً ملفوفاً بأقْمِطَتِهِ تتعالى منه الصرخات. لم يكفّ عن الصُّراخ. كائن صغير من لحم ودم يبكي، بقوّة، دون كلل أو ملل، منذ أيّام، منذ أسابيع، منذ أنْ رحلَ هذا الرجلُ الغريب، لهي معجزة حتّى أنَّ طول بكائه لم ينهك جسده. يتواصَلُ صمتُ الفارس. ثمّ على مَهلٍ، يمرّر الفارس ساقاً فوق مؤخرة حصانه ويترجّل، وهو لا يزال حاملاً الطفلَ بيده. يتقدّم بضعَ خطواتٍ إلى أنْ يصبحَ في منتصفِ المسافة بين سيسُوكو وركوبته، يضَعُ على الأرض لُفافةَ القِماش التي ما زالت تبكي، ثمّ يمتطي حِصانهُ مجدّداً دون أن ينتظر ما الذي سيحدث، ودون أنْ ينبس بكلمة –فلربّما لو نطقها كانت لغتها غريبة ولن يتمكّنَ أحدٌ من مُحادثته بها، أو ربّما ما من لغة هناكَ في البقاعِ التي

أتى منها. على مهل، ينطلقُ مُجدّداً عائداً أدراجه، مُخلّفاً وراءهُ لأوّل مرّة منذ أيّام، أو ربّما أسابيع، صرخات الطفل الذي هجرَه للتوّ.

يلبثُ آل دجيمْبَا ساكنين في مكانهم. على حين يواصلُ الطفل الذي وضِع على الأرضِ تحت الشمس بكاءه. ينبغي انتظار قرار سيسُوكو. يتواصَلُ صراخ الطفل، تملأ الحياة الضئيلة هذه كلّ شيء بحضورها. يلبثُ الرجال قاعدين. ويمرّ الوقت ولا ينبس سيسُوكو بكلمة. يفهمُ الجميعُ أنّه اختار عدَم استقبال الطفل. لا ينبغي المُجازفة بقبول طفلٍ إنْ لم يكن ثمّة يقينٌ أنَّه لن يجلبَ لعنة ما. اختارَ عدَم التصرّف، عدَم القيامِ بشيء، والبقاء في المكان إلى أنْ يهلكَ الطفل، إلى أن يغرقَ في النعاس، ثمّ يذوي ويموت. وذلكَ لن يتأخّر فالشمسِ في أشدّ سطوعها. ولن يكونوا هم الذين قتلوه، بل الريحُ والشمس والغبار، مَنْ جلبوه إلى هذا العالم وتركوه بلا رعاية، الفارسُ الذي وضعه عند أقدامهم، ليسَ هم. هُم لا يفعلون شيئاً سوى الانتظار. ولسوف يدفنونهُ باحترام حينَ يموت، وحتّى بعناية، ويحملونهُ كما يُحمل وثن لآلهةٍ لا أحد يعرفها والجميع يخشاها. تمضي الساعات. يتصبَّبُ العرق من جباهِ المحاربين وأجسادهم المحزّمةِ. الأطفال الرابضون قرب أمّهاتهم يُغالبهم النعاسُ وعليهم أن يجهدوا للمُحافظةِ على استقامتهم. صرخات الرضيعِ وحدها لا تضعُف. تلج الرؤوس جميعها وتخرقُ الجماجم، يصرخ بأنّه على قيد الحياة، بأنه بحاجة ليرضع، بأنه يريد إسكات تضوّر معدةٍ فارغة، يصرخُ من ذاك الهواء الساخن الذي يُمزّق رئتيه، من ذاك الغبار في عينيه. لا يزال الرجال منتظرين. الشمس في ذروة سطوعها، تنهكُ الحجارة بحرّها، وتجعل الحصى ناريّة يستحيل لمسها. يظنّون أنّ كلّ شيء سينتهي عمّا قريب غيرَ أنَّ المولود الجديد يصمد، والشمس هي التي تتنازل أولاً وتنسحب. تبدأ بأن تغربَ كأنَّ الرضيع أخضَعها. رغمَ مفاجأةِ سيسُوكو دجيمْبَا يحتفظ باستقامته. إذا لم تستطع الشمس القضاء على هذه الحياة الغريبة، الموضوعةِ أمامهم، المهدّدَةِ بمخاطر ممكنة، ستتكفّلُ الضباع بذلك. فلن تتأخّر عن القدوم وهم لن يأتوا بأيّ فعلٍ أمامَ شهوتها، سيتركونها تسحبُ اللفافة إليها

لتُمزّقها إرباً وتفترسها. ربّما لن يكون هناك قبر في النهاية ليحفر، مُجرّد أشلاء لحم متناثرة وسط وليمة الأنياب. ما الذي تبتغيه الآلهة منْ إجبارهم أنْ يشهدوا مَجزرة كهذِه؟

بالفعل، تأتي الضباع مع التماعات الغسق الأولى. تُعلن عن حضورها بصرَخاتٍ طويلة، حادّة، مثل صرير أسنان. صرخات الحيوانات النهمة هذه توقِفُ بكاء الرضيع لبرهة، هل هو خائف؟ هل يشعرُ من قرارة صغره أنّ هذه الدواب ستُنشبُ أنيابها في جسده، ستعبَثُ فيه، وتبقره بشهيّة؟ لا يستمرّ صمته. فلا يلبث أن يعود للبكاء وبكاؤه يقود الضّباع التي تقترب بحذر، إذْ تكتشفُ أنّ أمام هذا الشلو الصغير من اللحم الذي يجتذبها بوهنه وقلّة حيلته أناساً، جمْعاً غفيراً منَ البشر، قرية بأكملها تقتعد الأرض. تخشى أنْ تسقطَ في الفخّ غير أنّها مُنجذبة بشكلٍ طاغٍ نحو هذا الجسد الممدودِ إليها، تتقدّم بظهور مثنيّةٍ مثل كلاب مُتردّدة، تُخالجها بعض الخشيةِ من تلقي ضربة محتملة. تخشرمُ وقد نفدَ صبرها. ثمّ، بعد أن تُصبِح على مسافةِ مترين من لفافة القماش، ولم يبقَ أمامها سوى أن تمدّ الأعناق وتتلقّفَ بالأنياب هذه الصرخات الصغيرة التي لا شيء يُتعبها، تلبث في المكانِ بدورها. بشر وحيوانات يلبثون وجهاً لوجه، ولا يزال الطفل يبكي. عندئذ تنهضُ مامامبالا، وقد عِيلَ صبرها. تجتازُ الحشد، دون أنْ تستأذن سيسُوكو دجيمْبَا بشيء، ودونَ أنْ تخشى الحيوانات التي نهضت لحظة اقترابها، تتلقفُ اللفافة وتضمّها إلى جوفِ ذراعها فتهدأ الصَّرخات مُباشرة. تحلّ مامامبالا جلابيتها وتقدّم ثديها المنتفخ إلى الطفل الذي يرضعُ بجوعٍ جبل. ترى أنّ الجسدَ الصغير الجائع جسَدُ فتاة، فترتسمُ ابتسامة على وجهها وتنطق عندها على مَسْمَع الجميع هذه الكلمات: «بحقّ ملح هذه الدموع التي غمرتِ بها الأرض، أسميكِ سالينا.» عندئذ، وكأنّها لا تنتظرُ سوى معرفةِ اسمها، تُقفل الضباع عائدةً، تاركةً هذا الشلو الصغير من اللحم إلى البشر، عائدةً إلى عالمها، عالم الأحجار الجافّة والليالي القلقة، حيث الجيف هي الكنوز والضحكات عويل.

- I -

القافِلَة

في الطرفِ الآخر من حياتها، يُوجَدُ ذلك الصبحُ المُشابه تقريباً، حيث تُنهِضُ جذعها فجأةً وتستوي جالسةً على الغطاءِ الذي تستَعملهُ كفِراش. شاخَت سَالينا جرّاء حياة كامِلة من الغبار، من الصراع، من التيه والغضب. سالينا، ذات الجسدِ الهزيل الذابل، ترهِفُ السمعَ لتلكَ الطبيعة الشاسعة. لا يزال كلّ ما حولها مغموراً بضوءِ فجر مُتردّد، لا يَجرؤ على طردِ الظلمة. تستَجمعُ انتباهها. لا يُمكنها القول يقيناً إنّ صرخةً أيقظَتها، إذ تَشكّ أنّها سمعتها. لبرهةٍ، تفتّشُ السماءَ ببصرها فلربّما كان طير جارح يلقي التحيّة على العالم كما يُحيّي ملك رعيّته، لكن لا شيء... في الطرفِ الآخر من حياتها، توجَدُ تلكَ اللحظة المماثلة تقريباً، حيث ليست هي من يصرخ بل من يُصغي، حيثُ تلبثُ بلا حراك على الصخرة المطلّة على مشاهد الطبيعة حولها، باحثةً ببصرها عن تأكيد لمَا ظنّت أنّها التقطته. هل خطرَ لها في تلكَ اللحظة أنَّ الفارسَ عاد ليأخذها؟ لا. حياة كاملةٌ انقضت والفارس لشدّةِ نأيه ما عادَ ينتَمي لذاكرتها. فجأةً، تَسمعُها ثانيةً: مفرطَة البُعد، تكتمها المسافة. تعجزُ عن تفسيرها –صرخة ألم أم احتفاء باليوم الجديد– إلّا أنّها باتت على يقين، للأمرِ صلة بصوتٍ بشريّ يصدرُ دونَ انقطاعٍ وسطَ عالمٍ منَ الحجارة. تحتاجُ بعض الوقت لتُحدّد مصدَره في تلكَ المشاهد النائمة. تُمعنُ البصرَ في الأراضي الممتدّة تحتَ قدميها، في كلّ كثيب ومنعطف، وأخيراً ترى غمامة غبار عندَ الأفق. لقد عادوا. ما عادَ هناكَ شكّ. تُعاودُ الصرخة التردّد بعد دقائق طويلة، كما في المرّات السابقة لا أطول ولا أقصر. ثمّة رجل يُعلن عندَ الفجر الذي يبزغ شيئاً لا تَسمعُه. فجأةً تتنَاولُ، مسرعةً، بحركاتٍ

محمُومةٍ حقيبة من جلد الماعز سبق أن وضعت فيها مَطرة وبعض الأمتعة كما تلفّ غطاءين وتحملهما على ظهرها، ثمّ تتلفّف عصاها وتشرع بالنزول. تعرفُ كلّ حجر فلا تجرح قدميها بأيّ منها. في الطرف الآخر من حياتها، يُوجدُ ذلك الصبح حيثُ تتزحلقُ بعجلةٍ على دروب الحصى الضيقةِ رغم سنّها والسنواتِ التي استنفدتها، تفعلُ ذلكَ بثقةِ معزاة.

ترتَسمُ ابتسامة على ملامحها إذْ وصلَت قبلهم. تنتظر واقفة على جانب الدرب ظهور طليعة فرسان القافلة. تبحثُ ببصرها عن ابنها الذي هو هناك، في ذلك الرتل من الرجال والدواب الذي تختلِطُ فيه أخيلتهم بالغبار. انقضى سبعة وثلاثون يوماً على غيابه، سبعة وثلاثون يوماً منذ أنْ عهِدَت بهِ إلى تجّار القافلة ومنذ ذلك الحين تنتظر عودته. غادروا الخان في يوم قائظٍ خانق اختلَطت فيه أنفاس الدّواب بأنفاس الرجال. مضوا ليُقايضوا المواشي والفخّاريّات بالبهار والأغراض النحاسيّة في السوق الكبير عند حدودِ الكثبانِ الرمليّة. اليوم هم عائدون وهي خائفة، كما في المرّات السابقة، دائماً تخشَى هذه اللحظة. فما الذي قرّرت الآلهة فعلَهُ بابنها أثناء الرحلة الطويلة التي فرضتها عليه؟

ما إنْ ترى المطيّة الأولى، تُدوي في مسْمعها الصرخة الصادرَة عن فارسها، التي لا تمتُّ بصلةٍ إلى ما سمعته من أعلى الهضَابِ الصخرية: صرخة حادّة طويلة، تنتهي بما يشبه العواء. صُعِقت بقوّتها. صرخة متوترة، ونبراتها المبحُوحَة تمزّق الروح. تعلَمُ أنَّ ذلك يعني أنّ الرتل عادَ ومعه ميت. أحد الذين غادروا مُنذ سبعة وثلاثين يوماً همدَت أنفاسه، وما عاد سوى جثّة مُحمّلة على مؤخرة جمل. تتجمّد، تنتظر، تكادُ تسأل الآلهة لماذا تأخذُ منها دوماً من تُحب، لكنّها تُحجِم، تزمّ شفتيها وتلبث جامدة. يستأنفُ الفارس صرخته. يخرجُ سكان الواحة بالتتابع ويتجمهرونَ سريعاً حولها على امتدادِ الطريق. تطير أبصار الجميع مُتمعنةً بالفرسانِ الذين يظهرون، كلّ واحدٍ منهم يفتّش بنظره عمّن نَقص. يُمكن للموت أن يدركها في لحظات الانتظارِ هذه التي تساوي عمراً بأكمله. ثمّ أخيراً يظهر مالاكا،

ابنها، تتعرّف عليه من كيفيّةِ ركوبه. فتُطأطئ الرأس، تنحني نحو التراب، تقبّل راحة يدها ثمّ تضعها على الأرض، وتعيدُ الحركة ثلاث مرّات متتالية امتناناً للآلهة الكاسرة التي قرّرت اليوم أنْ تَرحمَه. يلبثُ الجميع في مكانهم صامتين. ما منْ أحدٍ يستقبلُ الواصلين بزغاريد الفرح، كما جرت العادة. لا شيءَ يصدُر عن الرتلِ سوى صرخة الرجل الذي يُعلنُ الموت. على مسافةٍ غير بعيدة، تجمدُ عائلة بلا حراك وقد أصابها الذهول، ثمّ تستوعب وتأخذُ ترتجفُ من هولِ الفاجعةِ النازلةِ عليها. مُنذ دقائق خلَت كانت عائلة سعيدة، واثقة من غدها، ثمّ سريعاً راحت تذرفُ الدموع، منكوبةً بخسارة أحد أبنائها إلى الأبد ويهرعُ أفرادها نحوَ الجملِ لإنزالِ جثّة فقيدهم الحبيب. ليست هي المنكوبة، وغير ذلك لا شيء يَهمّ. تعزلُ نفسها عن الأصوات المحيطةِ بها متابعةً ابنها ببصرها، لا تنظرُ إلى سواه. وسرعان ما تتنبّه إلى أنّه تغيّر –هل هذا ممكن؟– كأنّ السبعة والثلاثين يوماً التي قضاها بعيداً عنها جعلت منهُ رجلاً.

هذه آخر مرّة ستقاسي بها هذه المحنة. شيء عميق يُقرّر في داخلها –ليس بالذهن بل بالجسد والأعصاب، والدّم الذي ينبضُ في شرايينها... أنّها المرّة الأخيرة. لن تأتي إلى باب الخان ثانية كما أتت للتوّ، وكما أتَت عشرات المراتِ من قبل، لتقفَ بانتظار الرتل، مملوءةً بالخوفِ ألّا تجد ابنها حيّاً بينهم. مُنذ سنين، وحياتها تمضي على وقْعِ هذه الرحلات. عند كلّ مغادرةٍ للقافلة، إن كان في فصل الجفاف أو في موسم السوق الكبير للدواب، تودعُ ابنها الرتل لكي يرحل، ويُغادر مخيّمها المؤقّت حيث تُقيم، ويجوب الطرقات ويعرف البشر– وأن يفعلَ ذلك كلّه بدونها. منذ خمس سنوات، وهي تعاني في كلّ مرّة، محنة أيّام الانتظار، ببطنٍ ملويّ من الخوف، لا تمرّ لحظة أثناءها دون خشية من أنْ تتذكّرَ الفجيعةُ اسمها فجأة، سالينا، أنْ تتذكّره، أجل، وتقرّر –لمَ لا– أنْ تلفظَه منْ جديد.

أُنزلت الجثّة بعنايةٍ وسُلّمت للأذرع الممدودةِ للعائلة. سيروى عن هذا الموتِ حكاية تشيع بين الناس –سواء إن كان الموت حادثاً أم قتالاً. ستُطرح أسئلة، وسيُعاد سرد الحكاية ألف مرّة للإجابة عن عطش الأقاربِ الذي لا يروى، وإصرارهم على معرفةِ كلّ تفصيل. سيقضون لياليَ في السهر حداداً على الذي أُخذت منه الحياة في منطقة الكثبان غير أنّها لن تَشهدها، إذْ ستُقام تلك الليالي بعدَ أن تكون قد غادرت. في الأثناء تستردُّ التجارة مكانها. ينبغي إنزال حمولة الدواب، فقد أتى التجّار من بعيد، وقضوا أياماً وهم ينتظرون من أجلِ التحقّق من جودةِ البضاعة والشروعِ بالصفقات. تعمُّ الفوضى. وتُؤخَذُ الدواب إلى مورد الماء الذي تمضي إليهِ بازدحامٍ خانقٍ يثيرُ الغبار. تُحضرُ النسَاءُ حليب النوقِ للواصلين الجُدد في أكواب خشبيّة صغيرة. بعدَ أنْ يشرب الرجال يعودون إلى مشاغلهم ويفتحون صرَر البضائعِ الكبيرة لعرضِها على الملأ. تتنحّى جانباً بعضَ الوقت كي لا تُعطّل أشغالَ ولدها، إذ عليه أن يُساعدَ في إنزالِ الحمولة. تنتهز تلكَ الهنيهات لمراقبته، شيء فيه قد تغيّر: ليست ملامحه، ولا جسده، وإنّما طريقة الآخرين في مُخاطبتِه. ثمّة من يحيّيه، من يُربت على كتفهِ، شبان من عمره يُعانقونه. «إنّه واحِد منهم»، جالَ في سرّها، وهي غير قادرة أنْ تُحدّد ما إذا كانت المُلاحظة هذهِ تؤلمها أو تواسيها. يصيحُ الجميع حولها، منادينَ بعضهم بعضاً، يتفاوضون، وتدُور الأقمشة من يدٍ إلى أخرى، وتتمُّ المُقايضة بأكياسِ التوابل. سيتَواصلُ ذلكَ يومين أو أكثر، لا يهمّ، لن يكونا في هذا المكان للمشاركة بهذا الهرجِ التجاري. لقد قابلَت ما يكفي من الناس لهذا اليوم، ما يكفي من الازدحام والصخب، ولا تُصدّق متى تبتعد لتعودَ إلى البقاع التي أتت منها، حيث لا يعيشُ البشر.

بصمت، يمضيان مُخلّفين وراءَ ظهريهما برودة الواحة وجلبةَ الحشد. إلى اللحظة لم تسأله شيئاً. على الأجساد أن تتآلفَ أولاً، ومن ثَمَّ تنطقُ الأفواه. ليس عليهما الآن سوى السير مُتجاورين، أن يضبطا وقْع خطواتهما

معاً ويستعيدا تواطؤهما الصامت ثانية. يتركان فوران السوق ويوغلان قدماً في الصّمتِ الحجريّ للهضاب الصخريّة. العودة إلى الصمتِ تبعثُ في نفسها الارتياح، فقد بدأت أصوات الناس تُصيبها بالدوار، فائضُ الأصوات، الأجساد، الحركات والانفعالات كانت تُعيد إليها الكثير من الذكريات عن الحشود الانتقاميّة الحقودَة، عن الصرخات والشتائم.

هما معاً من جديد فوق أراضٍ شاسعة، الأم والابن، يعيشان على الإيقاع نفسه، ويمضيان بخطوة واحدة، محاذرين على البقاء في منأى عن صحبة البشر. يعبُّ بسعادةٍ هذا الهواء الكثيف، يشعرُ أنّه استعادَ الصمتَ الذي ولدَ منه. الأيّام واسعة وهي في غِنى عن أيّة كلمة. هما في مكانهما في صحارى قاسية من الحجر الذي يختزن الحرارة ويضخّم الأصوات. علَّمتهُ بأنْ يصنَع من شُجيرة مكاناً للمبيت، وأرشدتهُ كيف يُميّز مسارَ الينابيع ويتّبع خطّ الماء الجاري تحتَ الكثبان. بوسعهما تفسير نوايا السماء وغضباتِ الريح. تمضي حياتهما في قطفِ الثمار، واقتناص الطرائد من وقت لآخر، وساعات من تأمّل النجوم أو في إنصات الابن إلى حكايات أمّه. اليوم يستعيدُ وجه أمّه الحجري، طريقتها العنيدة بالمشي، وتبدو له أنّها الشيء الثابت في هذهِ الطبيعة الحصباء.

كلّ شيء على حاله. يلتقي من جديد بمسكنِ أمّه المُتّكئ على الجبال الصحراويّة، المؤلّف من جدار حجريّ مرفوع على نحوٍ دائريّ ومسقوف بسعفِ نخلٍ جافّ وأغصانٍ ميتة. وعلى بعدِ خطَوات من الكوخ، يجدُ البناء الخشبيّ الصغير المُثبّت على الأرض بأحجار ثقيلة، وهو عبارة عن أوتاد خشبيّة طويلة مغروزة بالتراب يعلوها ما يشبه سقفاً يتيحُ وضعَ أغراض شتّى؛ أوعية من القرع ومؤونة وأوانٍ لتكون في منأى عن القوارض. وأبعد قليلاً، يجدُ ثانيةً الحظيرةَ التي تُبيّتُ فيها سالينا مَعِيزها الأربع، ملكوت الذباب حيثُ يحوم وسطَ رائحةِ روث كثيفة.

تُعِدُّ سالينا النار. ينتَظرها أنْ تتكلّم كما تفعل دوماً، مُتشوقاً لذلك. كذلك كان الأمر دوماً؛ في المساء، بعد أنْ تفرغَ من غسلِ الصحون النُحاسيّة بفركها بالتراب، تتكلّم. والفتى يتشرّب تلكَ الكلمات بنهم، مُدركاً بالحدس أنّها تُلقيها على مسْمعه لكي يَكبر. كلّ تلك القصص، وكل تلك الحكايات، هذا أكثر ما أعطته له طوال تلكَ الأماسي المكرّرة. روت له ألف مرّة عن ملاحم غريبة ومعارك وأساطير بربريّة، ألف مرّة، تكلّمت عن ماضيها والزمن الفظّ الذي ولدت فيه. كان يُصغي إلى كلّ تفصيل بشغف، مُنذهلاً من وجودِ هذا القدْرِ من الكلماتِ داخلَ هذه المرأة، من أنْ تكونَ أمّه التي تقتَصر حياتها على هذه الأيّام الطويلةِ إلى جانبه، على السير أيّاماً، على سكنٍ بدائيّ ومرتجل، على المكابدة من أجل البقاء، قد عاشت حياةً مُثخنة بالجراح والصخب إلى هذا الحدّ. خامره الشكّ في الماضي أنّها تختلقُ حكاياتها، إلّا أنَّ هذا الشعور ما لبثَ أن اختفى سريعاً، إذْ إنّ الصدوعَ التي في صوتها لا تكذِب، يحدثُ أحياناً أن يتحطّم شيء في داخلها، كانت تتلعثم دوماً عندَ اسم بعينه، كانت تمسح عينيها دوماً عند استدعاء حدثٍ بعينه. يريدُ أنْ يَسْمعها تروي الحكايات التي سبق أنْ عرفها، ولديه رغبة بأن يُصغي إليها من جديد، لكنّها لا تفعلُ ذلك. بعدَ وقتٍ ترفع رأسها وتقول له: «اليوم عليك أنتَ أن تتكلّم...» أنْ يروي ما رآه وعاشه، أن يُخبرها عن الشّاب كيفَ مات، عن سوق التوابل الشّماليّ، ويصفَ لها حياة القافلة، يوماً بيوم، واللغات التي تعلّمها. يتردّد مالاكا في البداية إلّا أنّ عينيه تبرقان. يجلسُ أمام النار، وهو يأكل التمر المُجفّف الذي قدّمته له، ويشرعُ بالتكلّم عن أيّام الرحلة السبعة والثلاثين. كلّما استفاضَ بالحديثِ تلمَّست سعادته وأحسَّت بحماسته. ما يقوله لها صوته، ليس التخييم المؤقّت العشوائيّ للرتل الذي كان بالنسبة له لحظات ثمالة، ليس ذهوله لكونه في قافلة كبيرة إلى هذا الحدّ، ما يشي بهِ صوته، أبعدَ ممّا يرويه، يقولُ إنَّ الحياة انقضَت، وإنّ ابنها الجالسَ هنا، قبالتها، ناضج مثل رجل. تنظرُ إليه متأثرةً، كأنّها تراه لأوّل مرّة. يلتقي بنظرتها لكنّه لا يُدرك أنّ هذه النظرة لأمّ تكتشفُ أنَّ ابنها ما عادَ لها بالكامل. تَدعُه يتكلّم، متأمّلة أن يفعل ذلك طوال الليل، حتّى لو غفت، حتّى لو انطفأت النار

وتسلّل البرد إلى عظامهما: أن يتكلّم ليسردَ كلّ ما رآه، لتمتدّ هذه اللحظات ولا تنتهي أبداً. خيراً فعلت بأن تتعهَّد به إلى القافلة. كانت قد قطعت عهداً على نفسها بفعل ذلك وهو لا يزال في المهد، رَغم خشيتها كأم وتردّدها، قطعت عهداً على نفسها بأنْ تقتَلعهُ من أحضانها دوماً، وأسمته مُنذ أمدٍ بعيد «عهد أليكا». اليوم، تشعرُ أنّه ليس في حاجةٍ لرحلات إضافيّة، باتَ جاهزاً، باتَ يَعلم ما عليه أن يعلمه. فإذن، حين يَصمت، عند حلولِ الليل وتجمُّعِ الماعز مُتراصّات بعضهن إلى بعضٍ توقّياً للبردِ الذي سيهبِطُ من الجبال، تنظرُ إليهِ وتقولُ له ببساطة: «غداً، سنرحل.» تقول ذلك بنبرةٍ واثقةٍ لا تحتملُ أدنى شكّ. ما مِنْ حاجةٍ لتحديد الوجهة أو السبب. يفهمُ أنّ الذي سيغادرانه في الغد، ليس هذه البقاع الحصباء فحسب، أو هذا الكوخ العتيق الذي تتكدّس فيه أغراض المنفى أو تلك الجبال المُحيطة، بل حياتهما ذاتها.

- II -

في منأى عن البشَر

أخذَت معها عنزتين وتركت باب الحظيرة وراءها مُشرّعاً. خرجت الدّابتان الباقيتان واختفَتا في متاهةِ الصخُورِ المُحيطةِ بهما. حملَت معها ما تحتاجهُ من الأواني النحاسيّة حريصةً ألّا تُثقل على نفسها. يستديرُ مالاكا مُلتَفتاً إلى مأواهما للمرّة الأخيرة وقد تملّكه حدْس أنّه لن يعودَ إليه أبداً. «في هذا المكان كانت تعيشُ سالينا»، خطرَ لهُ وهو يملّي عينيه برؤية مَسْكن أمّهِ الصغير. في هذا المكان كانت تعيش سالينا التي تبتعدُ مُخلّفةً وراءها هذا الركام من الحياة، ومزيجَ الأغصانِ والحجارة المتروكَ للريح. يتأمّله ويُفاجِئه أنَّ هذا الرحيلَ لا يخلّف في نفسه أيّ حزن، فالذي ينتظره أوسع وأكثر نشوة، ما يدفعهُ للركضِ ليلحقَ بأمّه التي سبقته وغابت خلفَ المرتفعِ مُتّجهةً صوبَ الشرق، يفعلُ ذلكَ بمرحٍ طفوليّ.

يسيران بعضهما في إثرِ بعض، مُقتصدين قواهما في صحراء الغبار هذه التي تقهرُ حتّى الطير. هذا ليسَ رحيلهما الأوّل. أعادت سالينا مرّات عديدة نصبَ خيمتها، هنا وهناك وهنالك، ودوماً في منأى عن القرى، دوماً شبه مُتخفّيةٍ وراءَ الصخور. ولكن إلى اليوم، كانت تنقّلاتهما تَجري وفقَ تعاقُبِ الفصول: يمضيان جيئة وذهاباً من بُقعة إلى أخرى حسْبَ توقيت العام. أمّا رحيلهما هذا فشيء مُختلف. تتوالى الأيّام. ويتساءل إنْ كانت تَعلم إلى أيّ مكانٍ يذهبان أو أنَّ الأمر مجرّد قرار منها في المضيّ إلى أبعد بقعة ممكنةٍ في الشرق. توقّفت حكايات المساء وباتت تلتزم صمتاً مطبقاً عند المغيب، وهو لا يجد في نفسهِ الجرأةَ على سؤالها. في الأفق، يرى جبل تدمى الشاهق

يقترب، ويتساءل إذا ما كانا يمضيان إلى هناك. جبل تدمى الذي لم يَصعَده قطّ، والذي ما مِنْ أحدٍ جازفَ في المضيّ وراءه. مرّة واحدة فقط، وصل إلى سوق الأقمشة برفقةِ تجّار القافلة. وهو قرية صغيرة في الجنوب تقع على سفوح سلسلة جبليّة. آخر مكان مأهولٍ قبل القمم. عند بداية الموسم الجافّ، وبعد ذوبان الثلوج، يجري فيه التبادل التجاري مع أقوامِ العالم الآخر، الذين يجتازون الجبل عبر دروبٍ لا يعرفها سواهم، يأتون لبيع أقمشة ذات ألوان لم تُرَ من قبل. لقد أحبَّ ذلكَ السوق التجاريّ الذي مكثَ فيه عدّة أشهر، الوقت الكافي ليتعلّم لغة أولئك الناس ذوي البشرة السمراء، الذين هم أرباب مشاغِل الحِدادَة إذْ يسيطرون، حسْبَ قولهم، على مياه الجداول. كان سوق الأقمشة نقطة الالتقاء الوحيدة بين هذين العالمين شديدي البُعد. لم يُخاطر أيّ من تجّار القافلة يوماً في المضيّ أبعد. فجبل تدمى بالنّسبة لهم الحدّ الذي يفصلهم عن العوالم الأخرى. مع ذلك يتّجهان الآن نحوه. ليس عبرَ الدرب المُفضي إلى السوق التجاريّ بل بمواصلة السير منحرفينِ نحو الشمال قليلاً، نحو حاجز الجبال مُباشرة، كما لو أنّه سيُفتحُ تلقائيّاً حينَ يغدوان على مقربةٍ منه.

أحياناً، تتعثَّر في سيرها وهذا الأمرُ جدِيد. تمرّ بها لحظات دوار فتَجدُّ في إخفائها لكنّه يُلاحظها. كأنَّ الأرض تستَغفلها فتميد تحتها لجزء من الثانية. عندئذ تحتاجُ لمُتكأ ذراعه فتناديه باسمه لاهثة الأنفاس: «مالاكا...» احتياجها لهُ يشعرُهُ بالزَّهو. وما هي إلّا هنيهات ويستوي العالم مُجدّداً وتستأنفُ سالينا سيرها، وسرعان ما تعودُ إلى دأبها الذي لا يكلّ.

يصلان في أحد الأيّام قمّةَ تل، يلبث مالاكا مُنذهلاً، إذ ينتَصب قبالته جبل تدمى، مهيباً وضخماً. لم يره يوماً من هذا القرب. كأنّه حصن مغمور بالثلج. لقد تبدّلَ الهواء: ريح باردة تنزلقُ عن مُنحدرات الجبل تُصقع البشرة وتُدمِع العيون. ولكن فجأة، وبينما هو مُستَغرق في هذا المشهد، تَخور قوى

سالينا. يسمَعُ جسدها يهوي، ويرتطم رأسها بجذر مُحدِثاً صوتاً مكتوماً. يهرع نحوها صارخاً باسمها مراراً، «سالينا!»، إلى أن تفتح عينيها، بصعوبة في البداية، ثمّ بثقة أكبر، إلى أن تتبسّم لمرأى وجه ولدها. يشعر بالارتياح وهو يراها تستردّ وعيها. يُساعدها على الجلوس ويسندها إلى جذع شجرة، يقدّم لها بعضَ الماء فتشرب بصمتٍ، بحركات بطيئة. ثمّ وهي ترفع وجهها نحوه، بابتسامة طفل تقريباً، شبه مُتأسّفٍ، شبه مرحٍ، تهمس له: «أظنّ أنّي بدأت أموت.» يلبث منذهلاً، يتمنّى أن يصرخَ بقوّة نافياً، يُنهضها ويُقنعها بقوّتها، غير أنّه يعلمُ أنّها تقولُ الحقيقة. يشعر بذلك، يفهم فجأة لماذا رحلا، لماذا يسيران نحو الشرق مُنذ مغادرتهما. سالينا ستموت وتريد العثور على أرض ترتاح فيها.

الآن هو يحمِلها، لقد غادرتها قواها وغدَت عاجزة عن السير. لفرطِ خفّة جسدها يكادُ يكون بلا وزن... يشعر أحياناً بيدها تشدّ على كتفه؛ ليس لتطلبَ منه الوقوف، وإنّما لمجرّد التأكّد أنّه هنا، حيّاً تحتها، شديد البأس. تغفو أحياناً، فيشعرُ بجسدِها يزداد ثقلاً، وتنزلق ذراعاها على طول جانبه مُتدلّيتين في الفراغ، وعندها عليه أنْ يُحاذرَ منْ أنْ تسقطَ مُرتدّةً إلى الخلف.

حينَ أوشكَ على صعود جبل تدمى وقف لبرهةٍ مُتردّداً. اضطرّ للتخلّي عن المعزتين اللتين باتتا معرقلتين. تردّد لأنّ القمة بدت له شاهقة العلوِّ وصعودها صعبُ المنال. لا بدَّ أنّها شعرت بذلك إذْ شدّت برفق على كتفه لتشجّعه وتؤكّد له أنّه في الاتّجاه الصحيح، وأنّه لا ينبغي لأيّ تخوّف أن يُبطِئ خطواته. فاستأنفَ المسير.

يصعدَان بصبرٍ وانضِباط، باحثينِ عن درب في خواصرِ الجبل، يتوقّفان أحياناً حتّى تهدأ الريح، فينصبان خيمة عند قدم شجرة إنْ وجدت، أو في ظلّ صخرة. كلّ يومٍ انطلاق جديد. كلّ يوم يستأنفان الصعود، وحتّى لو أن ذلك لا يتعدّى بضع مئات من الأمتار. يختفي النبات تدريجيّاً، وتغدو

الأشجار نادرة، ويترك العشب مكانه للحصى. لا تلبث الطيور أن تغدو أكثر ندرة ويكتسي الهواء بطعم الصقيع. السير قدماً، أيضاً وأيضاً، هذا ما تقولُه بالضغطاتِ الخفيفة من يديها. يُطيعها، دونَ أنْ يعلم إن كان سيعثر على درب في هذه الطبيعة التي لا تلبث أن تغدو مجهولة أكثر ومُعادية، والممرّات التي تغدو أضيق وأشدّ انحداراً. يضطرّ أحياناً أنْ يتسلّق صخوراً، وعندها يتضرّع مُبتهلاً أنْ تتشبَّث به وألّا تخور قواها. يُصيبه الدوار في مثل تلكَ اللحظاتِ التي يكون بقاؤها متشبثةً به رهناً بالقوّة المتبقية لديها. تتماسك، ولا تُفلِته أبداً. ومعاً، رَغم الإرهاق، يصعدَان، يصعدَان حتّى أوائل الثلوج.

هما الآن بعيدان عن كلّ شيء، عالم البشر خلفهما، يرتقيانِ أعلى منَ الغيوم، وأمّه على ظهرهِ مثل امتداد له. لفرط ما اعتاد وزنها، وأنفاسها الواهنة، غدَت جزءاً منهُ لا يعيره بالاً، لذا أجفلَ يوم تكلّمت من جديد، مرّ زمن طويل لم تنبس بحرف، تقول: «لن أعرفَ مكانَ موتي...». يكاد يتوقّف. يُريد البحث عن صخرة مُسطّحة ليضعها عليها ويحاول أنْ يسقيها أو يُطعمها بضعَ ثمرات عنّاب، لكنّه يشعرُ بضغطِ يدها على كتفهِ ويعلمُ أنَّ ذلك يعني أنّه ينبغي عليه مُواصلة السير. لاحقاً، تتكلّم من جديد -كم مرَّ من الوقتِ لتستأنفَ؟-، ينفصِلُ صوتها برقّة مُدهشة عن هذا العالم الحجري الذي يصرّ تحتَ وطأةِ الريح. «أنتَ ستَحملني إليه.» لا يُجيب. يستجمعُ تركيزه للمُواصلةِ قُدماً من دون عرقلةٍ أو سقوط. تعصِفُ الريح بشدّة نافضة الثلج عن جانبي الطريق، وتضعهما وسطَ دوّامة تلسَعُ وجهيهما. ما من جسدين التصقا إلى هذا الحدّ قطّ، ما من أنفاس كانت بهذا القربِ يوماً. يمضي بخطوات بطيئة، كلّ ما حولهما يئنُّ ويُعول. مُتلحّفينَ بجلود دواب تجمّدت تحتَ لسع الصقيع، ومع كلّ حركة يجرحُ الوشاح الذي يتلفّع به ذقنه ممزقاً البشرة. كأنَّ الجبل يريدُ الإطباق عليهما. تَلجُ الريح الممرّات الجبليّة جاعلةً آذانهما تَصفر. تصفعهما، تجمّدهما، لكنّ مالاكا يصمد. وعلى مهل، يوماً بعد يوم، يَظهرُ النّورُ مُجدّداً.

ذات صباح، تخفّ شدّة الريح. لا يعرف أيّ مكانٍ من جسدِه ارتاحَ أكثر، أصابعهُ أم وجهه. بعد أن اجتازا شِعْباً، يتّسع الدرب الذي يَسلكانه تدريجيّاً، فيتقدّم قليلاً إلى أنْ يصل بلاطة حجريّة ضخمة تطلُّ على الفراغ. من هناك، يرى لأوّل مرّة الوجه الآخر للعالم، المفرط الاتّساع، ممتدّاً تحتَ بصرهِ ببطءِ الأيّام التي تَستعيدُ سكينتها. كلّ شيء أكثر خضرةً وكثافة ويمتدُّ في البعيدِ موصولاً بمياهٍ واسعة لم يرَ لها مثيلاً منْ قبل. يوشك أن يُنزل سالينا عن ظهره، أنْ يقولَ لها إنّ الأصعب قد بات خلفهما، وليسَ أمامهما، من الآن فصاعداً، غيرُ النزول، لكنّه لا يفعل ذلك. يلبثُ جامداً في مكانه، مع أمّه المعلّقة على ظهره، ويُسلم نفسه للامتلاء بالصمت المحيط به. ماتت. يُدركُ ذلك. ما عادَ يشعر بأنفاسها عندَ مؤخرة عنقه. تصلّبت ذراعاها وساقاها، كأنّها أرادت أنْ تضمنَ عدم سقوطها، حتّى في الموت. لأوّل مرّة، هو وحيد، مع أمّه التي فارقتها الحياة على ظهره. لن ترى هذه البقاع الممتدة التي يتأمّلها بهدوء، ولن يسلبَ لبّها ذاك المحيط الذي يظهر عندَ الأفق ولا ما سيكتشفه من تلكَ الأصواتِ الجديدة والأشجار الباذخة، لن تعرفَ شيئاً من تلكَ البقاعِ التي سيجول فيها غير أنّها لا تزال هنا، لصقه، وعليهِ العثور على مكان يدفنها فيه داخل هذا الاتّساع الجديد.

- III -

الجزيرَةُ المقبرَة

يبدأ الابنُ غسْلَه الطويل لأمّه. مزَجَ نُسْغ أشجارٍ بماء الجدَاول وعطَّرَ المستَخلصَ بغليه مع أعشابٍ حادّة الروائح، وغدا كلّ شيء جاهزاً. يتردَّدُ لبرهةٍ أمام جسَد أمّه الذي يُحرجهُ عُريه: الثديان مُترهّلان مثل جيبين مُفرّغين، زغب العانة متفرق، لحم الفخذين رخو قليلاً، وشعر الرأس محلول... نادراً ما رآه على هذه الحال، فقد كانت سالينا معتادةً على البقاءِ مُتلفعةً بوشاحِها الأزرق الداكن الذي يقيها من الريح والرمل. يبقى لابثاً في مكانه، تراودهُ الشكوكُ حول قدرته على ذلك. عليه إرغام نفسه وتجاوز الإحراج. ما عاد للجسد الذي تحتَ بصره حشْمة، هو ميت. وهي عارية مثلما الشجرة عارية، مثلما الصخرة. سيمرّر عليها يده كما يمرّرها على كومة دُبال أو على امتداد لحاء. غير أنّه ما زال مُتردّداً قليلاً، ثمّ أخيراً، يأخذ أصابع المرأة العجوز في يده، وبعناية معالج، يبلّلها مستخدماً قماشة، إصبعاً إصبعاً، بالبلسم الذي أعدَّه.

يفعلُ ذلك بتروّ. وتتصَاعدُ منْ كلّ إصبعٍ ذكرياتُ الماضي؛ يشعرُ بها، يتركها تهربُ، تحوم لبرهة في الهواء ثمّ تتبدَّد. كلّ إصبع يروي بدوره أيّ امرأةٍ كانت ثمّ يتركُ روايته تختفي، كلّ إصبع ومن ثَمّ كلّ ذراع، بالتروّي ذاته. إنّه غسْل الابن الطويلُ للأم. يستغرقُ ساعات. يشعر بكلّ شيء، وعندَ حلول الليل يتوقّف مدركاً أنّه لا تنبغي العجلة. يستكملُ في غدِ اليوم الموالي، وفي اليوم الذي يليه أيضاً. يتابعُ، يرفَعُ رأسها، ويستغرقُ وقتاً أطول في غسلِ الوجه. يجب أنْ يُخلصَ العناية بكلّ تفصيل؛ بفمها وكلّ الكلمات التي لفظها، والتي بصقها، والكلمات التي لم تخرج منه قط إذ عجزَ عن

نُطقها فماتت في داخله مثلَ أجنّة لم تَتَخلّق. ومن ثَمّ يأتي دور الشفتين، يوم بأكمله من أجل إطباقهما برفق، لترسما ابتسامةً، قوساً رقيقاً وادعاً، ولا تتيبسا بتكشيرة ألمٍ أو تبرّم ضجر. للمرّة الأخيرة يمرّر الابن يديه على الميّتة. ينسابُ ماسحاً الجثّة ببطء، يوماً بعد يوم، وصولاً إلى السّاقين اللّتين قطعتا مسافاتٍ طويلة. لم تفعلا على امتداد حياة كاملة، من الولادة إلى الموت، سوى قطعِ الطرقات واجتياز الدروب الحجريّة والرمليّة والبقاع الجرداء أو دروب المنافي. يمسحُ بطنها وحتّى عضوها الجنسيّ. كلّ شيءٍ يطفو من جديد. يُغلق عينيه ويترك روائح الحياة تلك تتردّد في داخله، أحاسيس الماضي المدفونة داخل الجسد الذي بينما يذوي يحرّرها. كلّ شيء هنا، داخل هذا الجسد الذي يجفّ تاركاً ذاكرته تُفلت منه للمرّة الأخيرة.

كلّ مساء، بعد أن ينتهي من تحنيطِ جزءٍ من الجثّة، ويضع برفق ما كساه بالمرهم للتوّ، يذهبُ إلى الغاباتِ ويبدأ بالصياح. يجبُ أنْ يعضَّ الحياة بأسنانه، أنْ يحسَّ بها، أنْ يرفع صوته ويصرخ متوسلاً الحياة ألّا تبقيه من جهةِ الأموات. يضربُ جذوعَ الأشجار، ويهبطُ المُنحدرات راكضاً، غير آبه أيّ دربٍ يسلكُ، ولا إن كان سيجدُ درب العودةِ ثانية. لا أهميّة لشيء. ما عادَ سوى جسَدٍ ينطفئ في ذروة جريه مُنهكاً ثمّ ينبعثُ ويرقص. كلّ ليلة، بعد السكون المُطبق لغسْل الابن لأمّه، يتدحرجُ في الأحراج ويُطلق صرخاتٍ عنيفة تجفلُ الحيوانات. يبكي، يصيح ويتطاير الزبد من فمه. يجمح ويرقص، كلّ ليلة، إلى أن يهمدَ منهكاً.

ينبغي السير، أن يلاقي دوارَ وجودهِ في العالم ثانيةً دونَ أنْ تكونَ لهُ صِلة بأحدٍ بعدَ الآن. الأمُّ التي كانت تُرخي يدها على كتفه مشيرةً إلى الطريق بإصرار كبَوصلَة ما عادت هنا. يستولي البطء على خطواته، كل ما في داخله يتشبث به ويُبطّئهُ. صنعَ نقّالة ووضع عليها جثمانَ سالينا. الصمتُ مخيّم عليه، فمع منْ سيتكلّم؟ إنّه وحيد في عالم لا يأبه له. ويحاولُ تذكّر صوتها،

سالينا، صوتها المبحوح، الذي قصّ عليهِ مراراً حكايات الأصل، وسخرَ مراراً من المعاركِ والحروب في مرويّاته، صوتها الذي كان يلفّهُ في ليالي النجوم، حين كانا وحدهما، صوتها الذي انسحبَ الآن منَ العالم، كبحرٍ أتعبَهُ الرمل.

قاعُ الوادي معشوشَب وتربتهُ زلقة مُشبعة بالماءِ ممّا ييسّرُ عليهِ جرَّ حملِه. لا يلبث أن يُصادِفَ نهراً فيقرّر السيرَ بمُحاذاته حيث يبدأ هناكَ أوّل ظهورٍ للناس. للوهلة الأولى، يُشعرهُ ذلكَ بالخوف ولكن ما إن يرى الهدوء البادي عليهم لدَى وصولِهِ حتّى تتبدَّد مخاوفه. ثمّة مزارعون ينكشون الأرضَ ويحرثونها وسطَ امتداداتِ الحشائِش العالية، ينهضون أحياناً وظهورهم محنيّة، يرمقونَ متفاجئين ذاكَ الرجل المجهول الذي يعبر أمامهم، ولكن لا يسألونَه شيئاً. يجفّفون العرق المتصبّب عن جباههم، وأحياناً يومئون بحركةِ يدٍ بطيئة فلا يعلمُ مالاكا إنْ كانت لتوقّي الشمس أم لتحيّته. يُصادف نساء أيضاً، عند منعطفات مجرى النهر، محنيّات على الماء لغسل الثياب أو تنظيف أطفالهنّ وما إن يرينه يمرّ حتّى يوقفنَ الغناء أو الشجار. لا أحد يسأله شيئاً. حضوره ليس مُستغرباً. لا فرق إنْ كانَ مُسافراً أو إلهاً، فليسَ هنَّ منْ عليهِ البتّ في الأمر.

تنحسرُ الأعشابُ العالية تدريجيّاً وتغدو نادرةً ثمّ يظهر درب على ضِفّة النهر، يَسلكه، سائراً على غير هدى إلى أن يأتي اليوم الذي تَظهرُ فيه، في البعيد، أسوار. يقفُ برهة، لم يرَ شيئاً كهذا من قبل: جدرانُ أسوارٍ مُنخفضةٍ وعريضة تَظهرُ مثل ثنية في أديم الأرض. يدنو. تمتدّ لوحات بانوراميّة على طولِ جدار السور، يتدَاخل فيها رجال ونساء ونباتات وحيوانات من شتّى الأنواع، مُختلطة، تمثّل غزواتٍ وحروباً وعناقات غراميّة، شعب بأسره نُحتَ على الجدران، أو ربّما رجال ونساء حقيقيّون تجمّدوا بالحجر تكفيراً عن ذنوبٍ اقترفوها، وينتظرون اليوم الذي تُبثّ فيهم الحياة مُجدّداً، فيتحرّرون

ويتوزّعون في المدينة... يتردّد لبرهة، لا يعلَمُ إنْ كانَ ينبغي عليهِ المواصلةُ والاقتراب. يلفي نفسه أمام باب المدينة الكبير، وسط تجمهر غفير، وبينما رتل من الرجال والنساء يدخلُ المكانَ المُسوّر يخرج رتل آخر، وتتقاطع سبلهم ويتزاحمون، ويختلطُ كلّ شيء؛ الأصوات والأجساد وسلال الخيزران وروائح السوق والحيوانات، دون أن ينتبه أحد إلى وجوده، أو يسألهُ عمّا يحمله على نقّالته. فيتّخذ مكانه وسط الحشد، وسط الصراخ، ويلج بدوره داخلَ الباب الكبير.

يغوصُ في شبكةٍ منَ الأزقة، يتقدّم على قدْر ما يستطيع تاركاً نفسه تُسَاقُ في متاهتها. تمتصّه الشوارع فارضةً عليهِ إيقاعها. وفي آخرِ الأمر تخفّ كثافة الحشود ويَسعهُ السير بتريث. يخلّف الازدحامُ طنيناً في رأسه. كلّ ما تحت بصره ينضحُ بالبؤس على نحو يتناقض مع أناقةِ الأسوار التي خلّفها وراءه عند المدخل -كأنّما المدينة ثريّة وحدها في حين محكوم على سكّانها بالعري والقذارة. في الساحات التي يجتازها يبصرُ أجساداً ملويّة، كسيحة، تعرج خائضة في الطين. نساء ناحلات يُرضعنَ صغاراً نهمين، ولا يدرينَ ماذا يفعلنَ لسدّ رمقهم، يرفعنَ الرؤوسَ لدى مرورهِ ثمّ ينكسنها ثانية. يرى مُسنّين، فاقدينَ صوابهم، يدوّرونَ حدقات ممسُوسَة ويرسلون أدعية بصوت مكتوم عبر تصدّعات الواجهات. أوه، يالَلمدينة المكتظّة بالأحياء، المدينة المنذهلة من حالها، المُفرطة، شديدة الإفراط، جوعاً وإنهاكاً. تفضي بهِ الشوارع الصغيرة التي يسلكها، دونَ وجهة محدّدة، إلى قناة تظهر أمامه. وعلى رصيفها، على امتداد المجرى المائيّ، تكتظُّ قوارب موصولة بعضها إلى بعض. وفي هذا المكان يُباع كلّ شيء، إذْ ترتفع أكوام الخضار وأكداس القماش. مياه القناة ملوّثة؛ يرى أجساداً تطفو على السطح ولا أحد يكترث بها كأنّ أولئكَ الموتى لا يخصّونَ أحداً، يهدهدهم ارتطام الموج وهم مُبحرون برفقٍ نحو المصبّ النهريّ مثل دمى بطيئة تتآكلها الأسماك. يواصل بمُحاذاة الأرصفة سيره مُجتازاً الساحات المُكتظّة بالتجّار وأسراب الأطفال الذين ينادونه. يُسلم نفسه للمدينة تُضيّعه وينتهي به المطاف بالهبوطِ نحوَ ساحةٍ

واسعة. هناك، ينفتح كلّ شيء فجأة على البحر الذي يظهرُ شاسعاً ومبهراً. يصابُ بالدهشة، إذْ لم يكن يظنُّ أنّ البحر قريب إلى هذا الحدّ. بلاط الساحة الرماديّ يمتدُّ صوبَ اتساع مُتلألئ والهواء البحريّ يضعه في حالةِ ذهُول.

ثمّة رجل يجلسُ على حافّة الرصيفِ يرمقه مُتكئاً على عصا خشبيّة طويلة، وتحيطُ به قرود صغيرة. بعضها يغفو بين ساقيه، وأخرى تصعدُ وتنزل بدعة على جسدِه الساكن، وأحياناً تَستقرّ على رأسه بين خُصْلات شَعْره. دون أنْ يدركَ مالاكا دافعهُ تماماً، يقتربُ منهُ ويحيّيه بإيماءةِ رأس. يتردّد ثمّ يلفظ كلمة «مقبرة» بنبرة استفهاميّة. للوهلة الأولى لا يُجيب العجوز، ثمّ بتريث، دون أن يتحرّك تقريباً، مكتفياً بالحدّ الأدنى من الحركات، يُشير إلى الجهة خلفَ ظهره. ينظر مالاكا باحثاً عمّا أشارَ إليه مُحدّثه باليد لكنّه لا يرى سِوى البحر. هل الرجل يدعُوهُ لأن يدعَ سالينا تنساب مع الماء؟ ولكن فجأة، يتوقّف بصره عند شكل في الأفق، جزيرة. يُعيد طرح سؤاله وهو يشير بإصبعه إلى الجزيرة: «مقبرة؟» يومئ الرجلُ بالإيجاب. ما لا يراه مالاكا، هو أنّ هناك شيئاً تغيّر حولهما. انقطعت الأحاديث، واتّجهت الأبصار نحوه. ما لا يسمعه مالاكا، هو تلك الكلمة، التي يهمس بها المُتسكّعون جميعاً: «دارزغار... دارزغار...» التي هي اسم العجوز. يتوقّفُ الناسُ في أرجاءِ السَّاحة عن مشاغلهم، يَصمتُون ويرمقونهما. يدرك شيئاً فشيئاً أنّ السبب مُخاطبته لذاك الرجل دون أنْ يعلم إن كان قد ارتكب خطأ بذلك أو إذا كان في حضرةِ شخص قُدْسيّ... فجأة، يعلو صوت دارزغار رصيناً. يحدّق بعينيهِ الخضراوين الرماديّتين في عيني مالاكا ويسأله:

«من أين أتيت؟

– مِن وراء الجبل.

– أيّ جبل؟

– الجبل الذي ندعوه تدمى والذي يفصلُ بين العوالم.

– منْ تجلبُ معك؟

– أمّي.»

تتجمَّدُ الحركةُ في كلّ مكانٍ في الساحةِ حولهما. باستثناءِ القِطط التي تُواصِل مُحاذاةَ الجدران باحثةً عن لقمةٍ بائسة. يعتَدلُ دارزغار في جلوسِهِ مُتكئاً على عصَاه الخشبيّة الطَويلة. القرود الصغيرة المُستقرّة على كتفيهِ وعنقهِ وركبتيه تنزلقُ تباعاً على طُول ملابسِه وتتقافَزُ حولَ ساقيه، ومُتفاجِئة من اضطرارها إلى مغادرةِ مكانها، تبتعدُ على مضض عن ذاكَ الدفء الحيّ. تتّصِفُ حركاته ببطءِ جبل. يُنزلُ آخر الثدييّات الصغيرة برفقٍ ثمّ مُتحاملاً على نفسه بمساعدة عصاه ينتصبُ فارداً قامته بالكامل؛ رجل ناحل، عاري الصدر، ولحيته تُغطي كامل بطنه تقريباً.

«القاربُ بانتظارك»، قال، مُشيراً بإصبعه نحو زورق يبدو أنّه راسٍ هناك منذُ أن تشكّلت المدينة.

يَشقُّ الزورق طريقاً من بين مراكب التجّار، وتجمّعات الطحالب والغصون المُتشابكة. يدفعُ الرجل العجوز عَصَاه بثقةٍ دون بذلِ جهد فائض عمّا ينبغي. سارَعَ الرجالُ والنساء في الساحةِ التي تركاها خلفهما إلى التجمهر عند حافّة الرصيفِ والنظرِ إليهما وهما يبتَعدان بصَمت. عندما يتجاوزان مركباً تلتفِتُ الوجوه نحوهما، يتوقّف الصياح، وتُعلّق الأحاديث. راحت تلكَ العيون كلّها تتبعهم. وكأنَّ الشيخ المسنّ قد فهمَ أنَّ مالاكا يتساءل عمّا يجعل الحشدَ يتأمّله بهذا القدْرِ منَ الدهشة، فيُفسّر لهُ بينَ دفعتي مجذاف: «انتظرتُ هذا اليوم منذ زمنٍ طويل، وكذلك سائر المدينة...»

دون أن يعلمَ مالاكا المغزى من ذلك، يفهمُ أنّ الذهول الذي يقرأه على وجوه من يتجاوزهم آتياً من الشرفِ في أنْ يكون على ذلك الزورق –ولكن هل هذا شرف؟–، في أن يُشاهدَ العجوزُ ثانيةً منكفئاً على خشبته الطويلةِ يدفعها بقوّة، حاملاً إلى عُرْض البحر منْ أصْعدَهُ متنَ زورقه.

يبتَعدان عن اليابسة. يُسلمُ مالاكا نفسه لهدهَدةِ الزورق. للوهلة الأولى شعر بالخوف غير أنَّ الانعكاسات التي تتلألأ على سطح الماء تسحَره وتشغله بالكامل. وأخيراً يسألُ إنْ كانت المقبرةُ حقّاً تلكَ الجزيرة التي يراها ويُجيبه دارزغار بالنفي. ثمّة في الخليج خمس جزر منتظمة مثل عقدِ اللؤلؤ، والجزيرة المقبرة هي الأخيرة. ستكونُ الرحلة طويلة.

«هل سأستطيعُ دفنَ أمّي هناك؟ يسألُ مالاكا.

– المقبرة منْ سيُقرّر» يُجيبُ المعدّي.

ثمّ يدفع ثانية بتجذيفة واسعة تاركاً الزورق ينسابُ مُسرعاً، ويفسّر أنّ المقبرة التي يأخذهُ إليها مقدّسة، ويحيط بالجزيرة سور ولا مدخلَ لها سوى باب سميك لا يقوى أحد على فتحه. ينبغي تحميل الموتى، وأثناء الوقت الذي يستغرقه العبور تُقصّ حكاية الحياة التي عاشها الميّت. والمقبرةُ ستُصغي للحكاية، وتقرّرُ في نهايةِ الرحلة إن كان بابها سيُفتح أم لا. يخبرهُ العجوز عن عائلات بأسرها أبحرت ووصلت السور، من الذين يحكون القليل إذْ يكتشفون أنّهم لا يعلمون شيئاً، والذين يختلفون حول الحكايةِ ويتشاجرون على الطريق، والذين يكذبون أو يُجمّلون... يحكي لهُ عن باب المقبرة المُغلقِ منذ زمن طويل. فهل لأنّ المقبرة مُكتظّة بالموتى ترفضُ فتحَ بابها؟ أم لمعاقبةِ السكّان على جريمة اقترفوها دونَ أن يفطنوا لذلك؟ ما منْ أحدٍ يعلم، غير أنَّ البابَ ظلّ مغلقاً.

بعد أن أنهى العجوز، يستدركُ وهو يغرز العصا بالماء ويدفعُ بكلّ قوّته: «بعدَ أن نخرجَ من الميناء، تستطيعُ أن تبدأ سردَ حكايةِ من تَجلبُها معك.»

يلتزم مالاكا الصمت، مُحاولاً على نحو سريع أنْ يستَجمع جميعَ ذكرياته، جميع الحكايات التي روتها له سالينا أثناء حياتها. يعاود التفكير بكلّ تلك الصور التي اجتاحته وهو يُجري غسْلَ الابن للأمّ، لكنها كانت فوضويّة، على شكل نتفٍ متفرّقة. يعاودُ التفكيرَ بالحكايات التي روتها هي بنفسِها عن طفولتها في القبائل الصحراويّة. ويُحاول لأوّل مرّة أنْ يتصوّر حياة سالينا كقصّة يجبُ عليه روايتها.

بعدَما وصلا عرض البحر، تشتدُّ الأمواج. ليست عاتية مجرّد تمايل إضافي غير مُعتادٍ عليه مالاكا، فيتشبّث بحافّة الزورق بيدٍ متوترة. يخفّ ضياء النهار تدريجيّاً. تظلّ الجزر غير مرئيّة، لا يُرى منها سوى الأولى على حين تُحجب الأخريات بما يشبه غلالة السديم التي تَجعلُ خطّ الأفق واهياً. يشعرُ أنّه مُستعد. حدّدَ النقطةَ التي سيبدأ منها حكايته. وكادَ يهمُّ بالتكلّم لمّا رفع دارزغار يدَهُ ليسكته: «لم يحن الوقت بعد. ينبغي انتظار قارب الشهود.»

ثمّ يستلُّ عصاهُ الطويلة من الماء ويضعها في قاع القارب ويلبثُ ساكناً ليقفَ الزورق. ما عاد لذاك القضيب أيّة فائدة بعدما ابتعدا عن الشاطئ. يجلسُ دارزغار عندَ مُقدّم المركب، أمام مالاكا، ويصمت. يقبعُ منتظراً ويشعر مالاكا أنّ ذلك قد يستغرق ساعات. ليس للأمر أهميّة. ينسابُ القارب برفق على غير هدى، كأنّما المُعدّي العجوز أسلم نفسه للبحر، أو إلى القمر، أو أيّة قوة أخرى يجهلها مالاكا تتكفّل بتدبّر مسارات القدر. على العالم أن يتّخذ قراراً وليس بوسعهما تعجيله أو التأثير فيه.

يصلُ أخيراً القارب الذي كانَ ينتظره دارزغار، رافعاً شراعاً أحمر داكناً. إنّه صيّادٌ تبعهما مُنذ أنْ غادرا الرصيف. عندما يقتربُ القارب، يلاحظُ مالاكا على متنه العديدَ من السلال المجدولة العامرة بالفاكهة التي تُثقل المركب. يتريّثُ الصيّاد ثمّ يُلصق قاربه بقاربِ المُعدّي، دون أن ينبسَ بكلمة أو يسأل شيئاً. ترافقه عائلته بأكملها: امرأة ذات عينين سوداوين محاطة بالأبناء. كم عددهم؟ أربعة؟ خمسة؟ لا يرى مالاكا غير سيقانٍ غافية، أذرع تعانق أذرعاً، ملتحفين جميعاً بأغطيةٍ ملوّنة، لها، ولا بد، رائحة ملح البحر. يُوثق القاربان بعضهما إلى بعض. لم يُخفِض البائع شراعهُ. يعود إلى دفّة القيادة، هو من سيقود القاربين. ما منْ أحدٍ تكلّم. ما منْ أحدٍ قدّم نفسه لكنّ دارزغار ينهضُ بهدوء ويرسم بطبشورة إشارة غريبة على خشب القارب التجاري، ويلفظُ جملة لا يفهمها مالاكا، ثمّ يلتفت نحوه قائلاً:

«بهذه الإشارة على القارب، ستتمازج الألسن وتُفهم كلّ كلمةٍ تُقال.»

بعدها يعود للقعود ويقولُ بصوتٍ رصين وهو يُحدّق مباشرةً في عينيه: «الآن، يمكنك أن تبدأ.»

عندئذ، يفهم مالاكا أنّ الوقت قد حان ليروي أيّ امرأة كانت أمّه. يفهم أنَّ الوقت قد حان لينطق ذلك الاسم القديم: سالينا، الذي ما عادَ محصوراً به والذي احتفظَ به حتّى اللحظة مثل مُلك ثمين. وكأنّ عالماً آخر انبثَقَ فجأة في عذوبة المساء، عالماً أجرد، يابساً، من دماء ومن جراح، عالماً تعبق به رائِحةُ الضباع الكثيفةِ.

telegram @
yasmeenbook

- IV -

أوَّلُ الدّماء

«أنا، مالاكا، الابن الذي ربّتهُ في الصحراء أم كانت تكلّم الحجارة، سأروي قصّة سالينا، المرأة ذات المنافي الثلاثة. سأتكلّم عن أمي الممدّدة هنا، في قاع القارب، والعالم الذي سيظهَرُ أمامكم مجبُول منْ غبارٍ وصراخ. في الزمن الذي استقبل فيه العالم حياتها، كان ثمّة شموس تُدمي البشَرَة وتؤجّج رغبة متوحّشة بالثأر. في الزمن الذي استقبل فيه العالم حياتها، كان ثمّة طفلة انبثقت من اللاشيء. ولدت سالينا في مكان بعيد، لفرطِ بعده ما من أحد، ولا حتّى هي، بوسعه تحديده تماماً أو معرفة منْ هما أبواها. أنا، مالاكا، الذي عليه سرد حكايتها لتقرّر المقبرة إن كانت ستفتح بوّابتها أم لا، أختار أنْ أستهلَّ حكايتي عندَ عتبةِ ذاك اليوم، في الطرفِ الآخر من حياتها، لأنَّ هناك ابتدأ كلّ شيء. في يومٍ شديدِ القيظ حيث شخَصَت أبصار قرية بأكملها صوب الجبال. الكلمات التي سأنطقها وصلتني شفاهاً من بعيدٍ عبرَ التناقل. لم أشهد أوقات المواجهة القاسية تلك، ولا أمي تتذكّرها، روتها لي نقلاً عن صوت آخر، صوت ماماميالا. هي التي أخبرتها بما سأرويه لكم. أنا، مالاكا، ابن سلسلةٍ طويلةٍ من الأصوات، وها أنا أعيدُ سردَ القصص التي حدثت قبل ولادتي وأبلغكم عبر أفواه كثيرة، أمسية تلو أخرى، كيف كان ذاك اليوم. فلا تخدعكم وحدتي، نحن عديدون في هذا القارب؛ عالم بأكمله يتقدّم إليكم بصوتي.»

يصمتُ مالاكا لحظة ليلتقطَ أنفاسه، يلبث الجميع ساكنين وأبصارهم شاخصة نحوه. في تلك اللحظةِ يدركُ أنّه سيمتلكُ المقدرةَ على التكلّم طويلاً، يشعرُ بالارتياح، كأنَّ الزمنَ أوقفَ جريه. لا شيء يكسرُ سطوةَ الليل، فيبدأ سرده. يتكلّم عن الضباع، عن ذلك النهار الذي كانت دقائقه طوالاً وعن الشمس التي انتهى بها الأمر إلى الرضوخ، ثمّ يأتي على ذكر ذلك الرجل الذي وصل، لا أحد يدري من أين، وما نطقَ بحرف. يصفُ الصرخَات المتواصِلة للرضيع، ويتكلّم عن المقابلة بين الناس والضباع، والرضيع بينهما في الوسط، ويقول إنّ الحيوانات في ذلك النهار هي التي رضخت. يتكلّم عن ماماميالا وعن الطمأنينة في صوتها. المرأة التي وقفت بوجهِ القبيلة قاطعةً رتابةَ الجمود ومطلقةً اسماً على الطفلة. يخبر عن القحطِ ولغز ذلك اليوم البعيدِ الأشبه بولادة، ثمّ يصمتُ مُستغرباً من نفسه كيفَ تكلَّمَ كلّ هذا القدْر. ظلّ دارزغار ساكناً طوال سرده. وبينما راح القارب يتقدَّم ببطء، تدفعُه الريح، بقي المعدّي مستقيماً، جامداً، مستغرقاً في الإنصات بأكمله. اقتربت امرأة الصيّاد أيضاً مُلصقةً نفسها على حافّة قاربهم حرصاً ألّا يفوتها شيء من الحكاية، حاملةً بين ذراعيها طفلاً تربّت على كتفهِ لتشعره بالطمأنينة، وآخر مُكوَّر بين ساقيها. يواصِلُ القاربان التقدّم في الظلمة، بتمهّل، بلا تعجّل أو تردّد. ما من أحدٍ يكسر الصمت. يفكّر مالاكا ثانيةً بما قاله للتوّ، بكلّ تلكَ الكلماتِ التي خرجت من فمه. لم يختلق شيئاً، كلّ ما قاله رُويَ له غير أنّها المرّة الأولى التي يرتّبُ أحداثه. القصّة التي ينشرها تُعيدُه إلى تلك المرأة ويخطرُ له أنّه في واقع الأمر لا يعرفها.

يستأنفُ: «أنا، مالاكا، ابن ليالي الصحراء الطويلة، أقولها أمامكم: لا أعرفُ شيئاً عن ذلكَ الطفل. فكّرتُ بالأمرِ مراراً. كنتُ قد سمعتُ في فتوّتي أحاديث في أسواق الخانات عن أطفال الشّؤم». ثمّة في مملكة البحيرات تقليد سائد، على ما يُقال، يهدفُ إلى تخفيفِ غلْوَاء القدر السيئ، ويقضي بانتقاء عشرة أطفال من العشيرة وتضييعهم؛ لا يُقتلون، وإنّما يُرسلون إلى جهاتِ الأرض الأربع، وكلّ واحد يرافقه رجل مُكلّف بأنْ يضعه في أقصَى

مكانٍ يستطيع. يُخلَع الأطفالُ العشرَة من عوائلهم ويطغى البكاء والأنين في يوم الانتزاع، تطغَى آلام الأمهات وصرخات التمرّد، إلّا أنَّ المُحاربين العشرة ينتقون لقسوة قلوبهم، فلا يجب أن يَؤوبوا من سفرهم إلّا بأيدٍ فارغة. يتركون الرضّع المختارين على طرق العالم المختلفة، فيموت بعضهم من الجوع أو الإنهاك، أو يقعونَ بأيدي أشخاص يستهترون بهم أو يخافون منهم. على حين ينجو آخرون، إذ يجري تبنيهم في البقعةِ التي وضِعوا فيها. شعب البحيرات يقوم بإفراقِ المخاطر المحتملة وبذلكَ يُهدّئ المزاج السيئ للقدَر الذي يغتاظُ من الوفرة، من فرطِ السلام، ويُطالبُ دوماً بحصّته من الفريسَة. هل كانت سالينا واحدة من أولئك الأطفال، منذورة إلى الطرقات لتخفيفِ وقْعِ الفجيعة؟ لا أعلم... ربّما كانت عقاباً لذاك الرجل الذي لن يُعرفَ عنه شيء أبداً سوى وجهه المُغبرّ. هل كان محكوماً باصطحابِ طفل يبكي ليل نهار؟ وعقاباً على أيّ ذنب؟ إن ما أعلمه وما أقوله، هو أنّه في أحد الأيّام، ولسبب مجهول، وفقَ قوانينَ غامضة، شعر الرّجل أمام قرية دجيمبا أنّ عقوبته أو مهمّته وصلت إلى نهايتها وأنّ بوسعه التحرّر من الصرخات التي دوَّخت رأسه لأسابيع... بعدَ ذلك اليوم، غدت سالينا طفلة، خرجت من المادة المبهمة: غبار الصحراء وفكوك الضباع، التي كان يمكن أنْ تبتلعها في أيّة لحظة. انتزعت نفسها من رائحة عرق البشر والدّواب وولدت بينَ ذراعي ماماميالا. ما سأبدأ برويهِ لكم الآن كانت أمي تتذكّره، هي منْ قَصّته عليّ، ما عادَ حادثةً ضائعة في الماضي بل كوكبة ذكريات، وسأكونُ بما سأرويه كمن يسيرُ على خطواتها.»

يدورُ كلّ ذلكَ في ذهن مالاكا وهو يدركُ أنّه لن يحصلَ يوماً على إجابةٍ شافية، لن يستطيع القول أبداً، بيقين، من كانت أمّه وعلى ماذا كانت تنطوي بكاءات البدء. ولكن يعلمُ أنّ الكلمات التي لفظها للتوّ هي الكلمات التي قالتها لهُ والتي نقلتها عن لسان ماماميالا. المرأة التي لم يعرفها قطّ والتي تَنبثقُ في الليل، تتجسّدُ تقريباً بما أنَّ ما يُقال كلماتها. سيتابعُ مجرى سرده ويدركُ أنّه منَ الآن، صوت سالينا الذي سيرنّ في أذنه. روت لهُ هذه القصّة مراراً وكان صوتها يتهدّجُ دائماً عندَ كلمة مُحدّدة، وتحدّج بالنار بغلّ عند

ذكرِ رجلٍ بعينه. ينظرُ إلى الكيس القماشيّ عند قدميه الذي يقي الجثمان من الرذاذ. كم من المراتِ استولى الغضب على صوتها في اللحظةِ التي تُعيد الشتائم التي ألقيت بوجهها، والإهانات التي تعرّضت إليها. حينَ يوشكُ أن يستأنِفَ حكايته، وإذ بدارزغار يديرُ رأسه، هذه الحركةُ في هذا القدر من السكون تفاجئ مالاكا الذي ينظرُ بدوره. يظهرُ خلفَ ظهرهم تقريباً، عن يساره، زورق جديد. وواحد من الرجال الذينَ على متنه يحرّكُ مصباحاً ضخماً. يُطِيع الصيّاد الذي يرافقهم بحيث يتيحُ للواصلين الجدد جهةَ القارب الأخرى، ومجدّداً ترسو القواربُ مُتلاصقة. غدا زورق دارزغار مُحاطاً بمركبي صيّادين. طوال مدّة المناورة لم يتكلّم أحد أو يشرح حركاته، يجري الرسوّ بصمت، عبر رميات حبال وحركات سريعة. وعندما فرغوا أخيراً، جلسوا على مقاعد القارب الخشبيّة جميعاً، والوجوه مُلتفِتة نحو مالاكا، عندئذ، يدركُ أنَّ بوسْعهِ المتابعة.

«أنا، مالاكا، ابن اللغز، ليسَ بوسعي أنْ أروي طفولةً بأكملها، مُسهباً في تلك الأيام الطويلة من الصمت حيث لم تكن سالينا أكثر من جسَدٍ ملتصق بحضن ماماميالا. ثمّ في نموّها التدريجيّ، وتعثّراتها، ومُحاولتها مُجدّداً... في تلكَ الأيّام حيث تندفع مُلقيةً بنفسها، تتأتئ، تخطو أولى خطواتها، ثمّ تنطقُ أولى كلماتها. ليسَ بوسعي أنْ أروي كلّ ما حصل في الشهورِ التي مرّت، والسنين، ومع ذلكَ تنبغي المحاولة. إذ أصبَحت في ذاك الوقتِ فرداً من القرية، تتنقّلُ بخفّة عبرَ أراضيها وتعرِفُ أكواخها وكلّ ركنٍ فيها. تنبغي عليّ المُحاولة لأنّها كانت سعيدَة آنذاك، كانت الطفلة التي تركض وتلعب وليس لديها ما ينتظرها سوى أيّام مُتلاحِقة منْ حريّةٍ لا تنفد أبداً. فإذن، أقولُ إنّ الرضيعة تَغدو طفلة. الجسد الهزيل للشيء الصغير الذي وضعَ أمامَ الضباعِ يكتَسِب قوّة وعافية. ماماميالا تعتني بها وتُرضعها، وسالينا تكبر، تمشي، تُصغي، وتُمطرها بالأسئلة. تعلّمها ماماميالا كلّ شيء: اللعبُ بحجارة قيعان الأنهر، صوت الفصول، كيف يُمشّط شعر فتاة تبعاً لألوان السماء. تُصلّي للأرواحِ وسالينا واقفة إلى جوارها. يعبقُ الفراش برائِحتها

النبيلة، الثقيلة، رائحة الحنان. ليس بوسعي أن أروي كل ما حصل في تلك السنوات ومع ذلكَ تنبغي المحاولة، إذْ هناك تتعرّف على كانو، ابن سيسوكو دجيمْبَا، لكن بالنسبة لها هو الصبيّ الصغير الذي تلعبُ معه وتكتشِف العالم. كانو الذي أحبته مباشرة، في أبعدِ ما تصلُ إليهِ ذاكرتها، لأنّه هو الآخر وذاتها في آن معاً. ركضت معه ولعبت وخبرت المخاوف الأولى وقطَعت العهود الأبديّة. عاشت معه الكثير من الأشياء البسيطة التي لا أهميّة لها، الكثير من التصرّفات البريئةِ والسعيدة التي تَسمُ الحبّ الطفولي واليقينَ أنَّ الحياة ماثلة بين أيديهم، آمنة ومُفعمة ومضيئة. ليس بوسعي أن أروي تفاصيل كلّ يوم، ولا عن الثقة التي تكبر بين المرأة والفتاة الصغيرة، ولكن ما أعلمه: أنّ ثمة شيئاً واحداً لم تقله ماما مبالا، وهو أنّ التقدّم في السنّ منفى.»

تتغيّر سالينا، تغدو فتاة صغيرة، تطولُ قامتها وتزدادُ جمالاً. تكبر غافلةً عن وجودِ ذلك اليوم، الذي ينتظرها، ذلكَ اليوم الذي سيُظهرُ أنَّ منْ يَضحكون حين تُعلنُ أنّها لن تتزوّج أبداً كانوا على صواب. لا تعلم عن وجود ذلك اليوم، الذي ينتظرها، عندما ستشدُّها الدنيا من شعرها وتستولي عليها. لدى سيسوكو دجيمْبَا، زعيم القرية، ولدان: سارو وكانو. سارو هو البكر، مُحارب فتي، متشوّق لاختبار قوّته. لم تفطَن سالينا أنّ سارو بدأ يحوم حولها. يفعلُ ذلك مثل حيوانٍ يُدرك أنّه ينبغي أنْ يتريّث. كان حاضراً دوماً، يَجولُ خلسةً، يُلاحِقها في كلّ مكان، وحين تجلبُ الماء إلى القرية، كان يظهرُ من بين السراخس ضاحكاً من ضفة النهر الأخرى، أو يلبث ساكناً مثل راصدٍ على قمّة كثيب. مُنذ يوم وصولها، وسارو يرعاها بحرصِ مالك يشتَملُ ماشيته ببصره. لا تأبهُ لذلك. تلعبُ مع كانو مُنتَشيةً بحضوره. كانو بخواتم شعره البنيّ، وابتسامته التي تُشبه بسمة غزال، كانو البارع، المتواطئ معها، الذي يُساوي عندها العالم برمّته. غالباً ما كانت تندفعُ نحو سارو، مُغتاظة من وجوده، وتسألهُ بنبرة تحدٍّ: «أنت، ماذا تريد؟» ولا يجيب أبداً، أو تواجهه بجمل غريبة تجعله يبتسم وقبلَ أنْ يذهب يقول: «ذلك سيأتي». لا يكفي البصقُ أرضاً لردعه أو الهروب جرياً. يقول: «يوماً ما، ستكونين لي».

لا تكفي الإجابة: «أبداً!». لا يكفي الصراخُ أنّها لا تُحب سوى كانو وإن كانت ستكون لأحد فلهُ. عندها يُصبحُ سارو بارداً مثل الحجر، فيقول لها، بشفتين ممتعضتين ونظرة قاسية، وهو يقتربُ منها -لفرط قربه تشتمّ رائحة الرجل التي له وذلك يفتنها وينفّرها في آن معاً- أنّه يستطيعُ أنْ يضاجعها بسهولةٍ، الآن، مباشرة، ومتى يشاء، وما من أحد سيعترض على ذلك لأنّه بكر آل دجيمْبَا وهذا وحده يكفي. إنّه ابن سيسوكو وبمُجرّد أنْ يضعَ بصره على شيءٍ يصيرُ ملكه -وقد وضع بصره على سالينا. ويقول إنه إن لم يرتمِ عليها مباشرة، فلأنّه ليس أحمق. إذ سيكون من الغباء قضم فاكهة قبل أن تنضج، على حين يمكن انتظارها أن تطيب. عند هذه الكلمات، دائماً، تشيحُ بوجهها غضباً وتغادر راكضة، قلقة ممّا يقول. ما تخشاه أكثر من الكلمات التي نطقها والتي لا تستوعبها تماماً، هو ثقته بنفسه. غير أنّ كانو دائماً ينجَحُ في طمأنتها. يأتي ليلقاها، ويطردَ التجهّم البادي على وجهها، يجتذبُها من يدها ويتواصَلُ اللعب.

ومنْ ثَمّ، يأتي ذلكَ اليوم الطويل مثل شمسٍ تُحتضر، ذلك اليوم عند النهر حيث هي بمفردها، أتت تنظّفُ الغسيلَ لتريحَ مامامبالا من عنائه. يحومُ الذباب مُصدراً طنيناً أكثر من المعتاد، مُدوّخاً مثل عطورٍ سكّريّة. يأتي ذلك اليوم الذي تشعرُ فيه بثقلِ نفسها، بتباطؤها. كأنَّ كلّ ما حولها يلتصقُ بأصابعها. كأنّ الهواء قد قرّر الكفّ عن التحرّك. غسيلُ الثياب مشقّة. تشعرُ بألمٍ في ظهرها. يأتي ذلك اليوم حيث فيه تفزُّ مُطلقةً صرخةً مباغتة: يسيلُ دم بين فخذيها، سميك، لزج، وعضوها منتفخ. لا تفهم. تَلوّثَ النهر. تعودُ القهْقَرى، مُحرجة من ذلك الأثر الذي تخلّفه على سطحِ الماء. تتنفّس، نفساً قصيراً، وتتراجع بضع خطوات إلى الخلف. يبقّع الدّم النبات، ثمّ الرمل. تشعرُ بالعار كأنها تلوّث كلّ ما تلمسه. مشهد ذلك الدم الهارب منها يصيبها بالهوس. لا تشعرُ بألم ولكن يبدو لها أنّها تفقد شيئاً منها. تُحدّق بعيونٍ مُجمّدة إلى تلك الآثار دونَ أن تنتبه لشراهةِ العالم منْ حولها. لا تفكّر إلّا بمامامبالا. تتمنّاها إلى جانبها، تتمنّى أن تشدّ على يدها، أن تسألها عمّا

يجري لها، وأن تصغي إلى إرشاداتها، وتنفّذها بحذافيرها ليكفّ هذا الخطْبُ بأسرع وقت ويعود كلّ شيء إلى طبيعته. تتمنّى ابتسامتها العطوف، رائحة الأرض العتيقة التي تتضوّع منها. ولا تكتشِفُ أنّها ليست بمفردها إلّا عندما تتردّد صرخة سارو، ضحكة مجلجلة، لقد كان يترصّدها وهو يعرفُ ما الذي يلوّثها، ضحكة انتصار وإثارة. تفهمُ أنّ سارو مبتهج لأنّ ذلك الدم المفقود هو، بطريقة أو بأخرى، ما كان ينتظره في المرّات التي كان يراقبها. لا تشعرُ بهول التهديد إلّا عندما تهرع إليها ماماميالا، متباطئة، تحتَ ثقل جسدها، وبعينين منذهلتين، لا تقوى سالينا سوى أن تقول مكرّرة بضع كلمات لا تعدو أن تكون دفاعاً واهناً أمامَ ضحكةِ سارو: «لا أريد... لا أريد...»

منذ ذلكَ اليوم، أصبحَ سارو يُكثر من تردّدِه. يحومُ حولَ الكوخ الذي خبّأت فيه ماماميالا سالينا. يقتفي رائحتها، يتشمّمها. وأحياناً، عندما تكون ماماميالا في الخارج، يدخل خفيةً ليجعلها تصرخ من الخوف والغضب، يدنو إلى أن يكاد وجههُ يلامس وجهها، ثمّ يلعقها ويغادرُ ثانيةً وهو يركض. تشعرُ بنفسها حبيسة، متصلّبة. يؤلمها ثدياها المنتفخان، ويُثقلُ الصداع رأسها. تكرهُ تلكَ اللزوجة الجديدة في غور ساقيها إذْ فهمت أنَّ منه لن يأتي غير الدموع. تبدو لها الأيّام طويلة وهي لابثة في مكانها مُنهكة ومنزعجة. «إلى متى سيستَمرّ، ماماميالا؟» تسألُ مرهقةً. والمرأة العجوز لا تجيب بشيء، ترتسم على وجهها ملامح تَفهُّم وتُعدُّ لها عصيرَ جذور لتقويتها. كم يلزمُ من تلكَ الأيّام البطيئة وهي تشعرُ كأنّها حشرة تتخبَّطُ داخل شبكة عنكبوت؟ تعتقدُ أنَّ العالم قد أوقفَ جريه. «هل تنزف النساء جميعهنَّ في الوقت ذاته، ماماميالا؟» ما زالت العجوز صامتةً. تضعُ قماشة مُبلّلة على مؤخرة عنقها لتُشعرها بالبرودة. «أين يذهب كلّ هذا الدّم؟ ولماذا يُسرّ الصبيان بذلك؟» تدور ماماميالا في أرجاء المكان، تُرتبه، وتقترح عليها أن تشربَ ثانية لكنّها لا تُجيب. «متى سيستأنفُ العالم جريه؟» لو أنَّ ماماميالا أجابت، لأخبرتها أنّ العالم يركض. اعتقدَت سالينا أنّه قد توقّف، مثلها، ولكن كلّ ما في الخارج يضجّ حركةً ونشاطاً. سارو لا يلبث يمضي جيئة

وذهاباً، لم يتأخّر لحظةً، فقد تكلّم مع أمّه خايا، وحصل من سيسوكو على إيماءة رأس تُعادل قبولاً. العالم يركض ويهتاج. وعندما يطلّ سارو مادّاً رأسهُ عبر نسيج الكوخ، أو مُطلقاً صرخات حماسة قصيرة وهو يحوم حوله، تدرك العجوز ماماميالا أنّها لن تستطيع فعل شيء وتتنهّد. «من أيّ جرحٍ ننزف، ماماميالا؟» تسألها سالينا. تتمنّى العجوز أن تتكلّم عن الطفولة التي تغادر الفتيات في وقتٍ ما، والحرية التي يخسرنَها مع الدّم الأوّل هذا، ولكن لا تنبس بكلمة وتترك سالينا غارقةً في الصمت على حين بدأت التجهيزات في القرية. وعندما يكفّ الدّم عن السيل أخيراً، عندما تشعر سالينا بالسعادة ثانية، بالخفّة، وتخرجُ من الكوخ لملاقاة كانو والركض معه بشغفٍ يوازي حسرة الوقت الضائع، تتجمّد. ثمّة في الخارج، على أكواخِ القرية ما تغيّر، فقد أسدلَت النساء أقمشة الاحتفال. تُجيل سالينا الطرفَ، تتردَّدُ حائرة. ترتاب بما سيأتي. تستديرُ نحو ماماميالا وتسألها: «ماذا يحدث؟» تتمنّى المرأة العجوز ألّا تقول شيئاً لكنّها لا تستطيع. تُكرّر سالينا سؤالها على نحوٍ محموم: «ماماميالا؟ ما كلّ هذا؟» والجملة التي تسمعها هي الجملة التي كانت تخشاها: «لقد أُعلنَ يوم زفافك.»

- V -

زفافُ

ميدانِ المعركة

تعلمُ سالينا أنَّ آل دجيمْبَا لن يعودوا عنْ قرارهم، وبما أنّها لا تَستَطيع دفعَهم إلى ذلك، تخطرُ لها فكرة أخرى. تركض عبرَ دروب القرية مُتّجهةً مباشرة نحو الكوخ الملكيّ. عندما تصلُ أمامه، ودونَ أن تُعلنَ عن حضورها، أو تنتظر معرفة إذا كان بوسع خايا دجيمْبَا استقبالها، تلجُ إلى الداخل وتجثو على الأرض. ثمّ برأس مُطرقٍ، دونَ أنْ ترفعَ بصرها، تبدأ التكلّم. تقولُ لخايا إنّها علِمت أنّها ستُزوَّج، وتقول إنّها لن تعارضَ ذلك، وهي تلهث مُحاولةً المحافظةَ على هدوئها. تستأنف وتقولُ إنّه إذا كان لابدّ من الزواج فليكن، ولكن بكانو. هذا ما تطلبه، هناك، راكعة، والعينان مُطرقتانِ في الأرض. تقبلُ أنْ تكونَ من آل دجيمبا ولكن مع الابن الذي تحبّه. تتوسّلُ خايا وتتضرّع إلى أرواح الزفاف التي ستبتهجُ بتقديمِ الحب لها. تتكلّم لتلفظَ اسم كانو، بما أنَّ الاقتراحَ لا يغيّر شيئاً تقريباً. لا أحد يُجيبها. يخيّم صمت طويل. تنتظرُ بعضَ الوقتِ ثمّ ترفعُ رأسها بتريثٍ وإجلال. كانت خايا هناك بالفعل، أمامها، مُحاطة بأربع وصيفات أو خمس، لابثاتٍ بلا حراك، مُنتظرات ما ستقوله الملكة. تقترب خايا بتريثٍ دون أنْ تحيدَ ببصرها عن الشابّة. وتكرّر العباراتِ واحدة واحدة: «لن تُعارضي ذلك؟» وسالينا تدركُ أنّ ذلك يعني الرفض. «تريدينَ فقط الاختيار بين ولدَي؟» وتعلمُ أنّ ما سيأتي ليس الرفض فحسب وإنّما الإهانة أيضاً. يستولي الحَنقُ على خايا وتعلو نبرة صوتها، «تريدينَ الاختيار؟ تعتقدينَ أنّ من حقّكِ أنْ تقرّري...؟» تكادُ سالينا أنْ تُكرّرَ اسم كانو، لمجرّد أنْ تلوّحَ بهِ أمام الغضبِ النازل عليها ولكن لا يتسنَّى لها الوقت. تُردفُ خايا، وهي تحدّجها بنظرةٍ هازئة: «أصغي

إليّ سالينا، ستتزوجين ابني، وسيكون سارو وفقاً لمشيئتي. إنْ حاولت المقاومة، سأجبرك. إن عضضت، صرخت أو تخبطت، سأضربكِ بيديّ وأطرحك أرضاً ونحملكِ فاقدةَ الوعي إلى المذبح.» تقولُ أكثر وتُسرفُ، تقول إنَّ سالينا لا شيء، ويجب أنْ تَسعدَ لوقوعِ الاختيار عليها، وإنّ سارو سيأخذها ويفعلُ بها ما يشاء. وتصبّ جام غضبها لشعورها بالإهانةِ من ذاك الطلب. في ذلك اليوم بالذات يولدُ حقد عميق، في لحظاتِ الشتائم الباردة تلك، حقد عميق سيستمرّ حياة بطولها. تنهض سالينا، تُحدّق في عينيّ خايا مباشرة، لا تقول شيئاً فلا جدوى من أيّة محاولة، ولكنّها تريد من الأخرى أنْ ترى التّحدي الذي يعتملُ في داخلها، منذُ الآن وحتّى نهاية الدهر. حقد عميق متبادل يولدُ بين المرأتين إلى الأبد.

قبل أنْ تلجَ كوخ مامامبالا وتلزمه، قبلَ أنْ تستسلمَ للقنوط ثلاثة أيّامٍ بلياليها، دون أن ينقطعَ رجاؤها بعودة خايا عنْ قرارها، متضرّعةً أن يتدخّل كانو عندَ أمّه، قبلَ أنْ ترتمي في حضن مامامبالا صارّة أسنانها، كانت تلكَ الساعات التي أمضتها في النهر الجافّ. خرجت راكضةً، دونَ أنْ تفكّر، ركضت فقط. وبعدَ أنْ أصبحت هناك، وسطَ الأغصانِ المبيضّة من الشمس، والحصى الجاف في قاعِ النهر، تترنّح، وتعيدُ في ذهنها الكلمات التي قيلَت للتوّ. «بيديّ سأضربكِ وأطرحك أرضاً، سالينا...»، تُكرّر خايا في رأسها. كلّ شيء حولها يضحكُ ويسخر. «بيديّ سأجرّك إن اقتضى الأمر...»، وتتفوّق وحشيّة الأم على وحشيّة الابن. فتنحني وتتلقّفُ شظيّة صخرة، مسنونة مثل نصل. أتقتلُ نفسها؟ كلّا. لا تفكّر بذلك. لا تريدُ أنْ تموت. تريد أنْ تنتصرَ على آل دجيمْبَا. ما يولَد، هناك، في قاع الجدول الجاف، هو الحرب. تُفكّر أنّها إذا شطبت وجهها بشظيةِ الحجر تلك، فلسوفَ تُحرمُ من جمالها، وعندها لن يرضى بها سارو زوجة له. ليس عليها سوى أنْ تُحدث جراحاً بليغة على وجنتيها، على جبينها والأنف، على الثديين إنْ لزم... سيؤلم ذلكَ حدَّ الصراخ، ستنزف، وتغيب عن الوعي ربّما. ستتقرّح الجروح وتشوّهها غير أنّ الزفافَ سيبتعد. فمن سيتزوّج عروساً مُشوّهة؟ إمكانيّة

التملّص من زواجها في راحةِ يدها وللحريّة هذه شكل سكّين. كأنّها ستَصفعُ خايا وولدها، تصفع كلّ الذين يتهيؤون للمراسيم. تلبث طويلاً على هذا النحو، بقبضةٍ مشدودة، مُتخيّلة الألم وما سينجم عنه، إلّا أنّ وجه كانو ينبثق في ذهنها. تتخيّل نظرته حين سيقع بصره عليها، نفوره... لأنّها إنْ غدت مشوّهة، فستكون كذلك في نظر كانو أيضاً، ما يعني التخلّي عن كلّ شيء. فتُفلت الحجرَ المسنون، الذي يُحدث سقوطه صوتاً خفيفاً، وتعودُ أدراجها، مُخلّفة وراءها برك دم لن يَسيل وأثلاماً لن تُشقّ.

النهار بطيء والقيظ خانق مثل غمامةِ غبار. تنهمكُ النساء حولها في أعمالهنَّ، مُتوتّرات مثل عصافير عندَ بزوغ الفجر. يُوضَع عِقد جديد حول عنقها، سبق أنْ قلّدت بخمس لكن ينبغي إضافة عِقد آخر. وعُلّق قرطان بأذنيها، لفرطِ طُولهما لامسَا كتفيها، وكلّما أدارت رأسَها ترتَطمُ الحليتان بعضهما ببعض. تضَع أساورَ ذهبيّة أيضاً، مُتباينة الثخانة. ثلاثاً في معصمها اليسار واثنتين في اليمين. تطلبُ منها إحدى النسوة إطباقَ جفنيها. تُزيّن. أيادٍ كثيرة تُعنى بها. لا تنبس بكلمة، تكفُّ عن التفكيرِ، تتمنّى لو يتوقّف كلّ شيء، ولكن لا يزال هناكَ إلباسها. ترى قطع الأقمشة تعبرُ أمامها بألوان زاهية، لمّاعة، تشيحُ ببصرها فتحسُّ بالأرديةِ تكسُوها. هل النية، في العمق، تثقيلها بكلّ تلكَ الحليّ؟ حتّى لا تقوى على الهرب، حتّى لا تستطيعَ الركض. وضَعوا في ساقها خلاخل تجعل لخطواتها رنين راقصة. تبدو النسوة، في جلبتهنّ حولها، راضيات، مبتسمات، يصدحنَ بالأغاني. وبعد أنْ فرغنَ من كلّ شيء، تدخلُ خايا بهيئة قائدِ حربٍ يأتي لتحيّةِ رجاله قبل الهجوم. لا تتلاقى نظراتهما. تشتملها خايا بالنظر متفحصةً كما تُفحصُ دابّة أعدّت لطقسِ تضحية. كلّ شيء في مكانه. «ضعوا لها التادوك»، تقولُ بنبرةٍ آمرة، والنساء ينصعنَ لرغبتها، الحِلْية الأخيرة قبلَ بدايةِ مراسمِ الزفاف، يُخرجنَ التادوك من علبةٍ صدفيّة؛ هو إكليل يتدلّى منه سلسال ذهبيّ طويل يُعلّق في فتحة الأنف ويحملُ العلامات المقدَّسة للعذريّة. حين تتزيّن به، تُزغردُ الفتيات جميعهنّ احتفالاً. «أين ماماميالا؟» لديها رغبة بأن تسأل،

ولكن لا يتسنّى لها أن تطرحَ سؤالها، سرعان ما تُؤخذ، فمقصورة الحمّالين بانتظارها. تدخلها بمفردها. بعد أنْ تغدو في داخلها تزمُّ ركبتيها لفرط ما المقصورة ضيقة. تُراقب الخارج من خلال ستائر حريريّة مطرّزة باللون الأحمر والذهبيّ. الجوّ حارّ. تلمح أحياناً هيئات أشخاص وتسمعُ جلبة. تتقدّمُ المقصورة على إيقاعٍ مترنّح بغرابة، كأنّها تحومُ فوق حشدٍ وهي تنسابُ فوق مناكبِ أولئك الرجال ورؤوسهم وظهورهم، أين يأخذونها؟ تتمنّى أنْ يطولَ الطريق، يطول إلى ما لا نهاية. أن يحملوها إلى جبل تدمى وحتى أبعدَ منه بكثير. مادامت في المقصورة فهي ليست متزوّجة، ولا بأس إنْ كان الطقس خانقاً في داخلها، إن كانت الأساور تضغط على معصميها... لا بأس إنْ كانت مسجونة بالذهب والأقمشة ما دامت غير متزوّجة. تصرُّ على أسنانها كي لا تصرخ، إذْ تعلم أنَّ الصراخ لن يكون مُجدياً. وثمّ أخيراً، تجمدُ مقصورة الحمّالين. يضعها الرجالُ الأربعة الذين يحملونها على الأرض. تزيحُ يدٌ الستار بحركةٍ مباغتة، تتعرّف عليها، يدُ خايا. منذ تلك اللحظة يجري كلّ شيء بسرعةٍ مفرطة. توجعها ساقاها عند خروجها لطولِ المدّة التي انكمشت بها على نفسها. لدى كلّ خطوة ترنّ الخلاخل في رسغيها. بالكاد ترى الحشدَ حولها. القرية بأكملها حاضرة. ثمّة وجوه لا تعرفها، وفود أتت من قبائل حليفة تنتمي إلى مناطق الشمال والغرب. يتجمهرُ حولها نحو مئةٍ من رجال ونساء متلاصقي الأكتاف، يوجهونها. تشعر بدوار، تترنّح ولكن ثمّة إلى جوارها أحد يسندها، كلّ شيء مُخطّط لتدارك أيّ وهنٍ يصيبها. هل خايا منْ طلبَ الاعتناء بها إلى هذه الدرجةِ من الاهتمام؟ أخذوها إلى حلقة حيث سارو هناك، بالزيّ الحربيّ لآل دجيمْبَا، وعلى جذعه رُسِمت العلامات المقدّسة للقبيلة بطلاءٍ أبيض. نُصِبت الرايات. ما منْ نسمةِ هواء. تبحثُ عيناها عن كانو. يبدو لها أنّه الوجه الوحيد، في تلك اللحظة، الذي سيمنحها القوّة ولكن لا تعثر عليه. يبادر سيسوكو دجيمْبَا بالكلام. يتكلّم غير أنّها لا تبالي بما يقول. كلّ شيء يجري بسرعة كبيرة، سريعاً فرغ من كلمته. والآن يصبُّ قليلاً من الماء الأحمر على الأرض، وبغتةً، يهتفُ الجميع ويزأرونَ بصيحات الابتهاج. تمّ الأمر. لقد تزوّجت. لم ترَ شيئاً، لم

تشعر بشيء، لم تفهم شيئاً. ولكن كلّ شيء قد حدث وسرعان ما بدأ سارو يتلقّى التهنئة كأنّه أنجزَ عملاً فذّاً.

كان ينبغي أنْ ينتهي كلّ شيء هناك، في هذر مُباركاتِ الرجال الذين يتمنّونَ للزوجين رأفة الآلهة والرخاء، ولكن عندئذ يصل أحد رجالِ قبيلةِ الشمال مُتصبّباً عرقاً ويقطع الأهازيج. يتكلّم بسرعة وبتوتّر: شُوهدَ جيش قربَ الأبراجِ الملكيّة، عندَ أوائل الكثبان. وبلحظة، ينقلِبُ ابتهاج الزواجِ إلى حميّةٍ حربيّة. يلتقِطُ الرجالُ سيوف التاكوبا، ودون حتّى أن ينضوا عنهم ثيابهم الاحتفاليّة، يَبرَحونَ المكان. تُعادُ مباشرةً إلى داخلِ مقصورة الحمّالين، كأنّما لا يجب لأحد أن يراها بما أنَّ سارو لم يَعد هناك. عندها تتضرّع، لأوّل مرة، بحق جميع الأرواح التي تعرفها، تتضرّع لينشب القتال هناك، في الكثبان الرمليّة، تحتَ الأنظار غير المكترثة للآلهة، وبأنْ تكونَ جموع الأعداء غفيرة وعنيفة وأكثر بأساً وشراسة، وبأن يقتلوا سارو، بأنْ يهجموا عليه وحده فقط جميعاً، بأن يدركوا أنّه بكر زعيم القبيلة وهو منْ يجبُ قتله. أن يقتلوه، ويسحقوه بأقدامهم، وأن يحيلوه جثّة بلا معالم. تتضرّعُ من قرارةِ روحها أنْ تغدو أرملة. متزوّجة وأرملة في يوم واحد. فعندها سيحصل ما تفرضُهُ الأعراف: ستُعطى لأخي المتوفّى وربّما يغدو يوم الزفافِ الملعون ذاك، بلحظة، يومَ سعدها. تتضرّع لكي ينقلبَ كلّ شيءٍ ويتحوّل: الفجيعة إلى فرح، الحياة المسروقة إلى لحظات انتشاء. غير أنَّ الأرواح تصمّ الآذان عن صوتها، أو ربّما خايا قد تضرّعت بخشوعٍ أكبر.

يرجع الرجالُ بعدَ عدّة ساعات. لم تنشب معركة، قُتلَ مُستَطلع للعدو فقط، وسارو من صرعه. دم ضحيّتِهِ لا يزالُ يبقّعُ صدره، وهو مهتاجٌ فرحاً. يُحكَى عنْ جسارتهِ أثناءَ المواجهة، تُكرّر مأثرته، وتُضخَّم: كيف انقضَّ على الرجلِ وطرحهُ أرضاً، كيف كانت ضرباته سريعة وقويّة، وكيف حاولَ الآخر الهرب، فأدركه سارو، ووثبَ عليهِ ثانيةً وذبحه بسيفهِ المقدّس... فأل حسَن للزواج. يكرّر الرجال جميعاً أنّ الآلهة التي قدّمت له عدوّاً يُضحي به هي معه. يتبسَّم ويرمق سالينا التي أُخرجَت مُجدّداً من مقصورةِ

الحمّالين. ثمّة في نظرته شيء تغيّرَ، أصبحَ يحدّقها بشهوة، فتشدُّ على قبضتيها. اللعنة على الآلهة التي لم تستَجب لأيّ من أمنياتها والتي ترضَخُ لإرادة آل دجيمْبَا. تدركُ أنَّ اللحظة قد أزفت، ولا شيء سيمنَعُ الآتي. لن تنشبَ الحرب اليوم. ربّما غداً، ولكن سيكون الأوان قد فات. يدنو سارو منها، يقبضُ عليها من ذراعها ويأخذها. يهتفُ الرجالُ جميعاً محيّينَ هذه البادِرة بفرحٍ عنيف كأنّهم يُمنونَ النفسَ بفعلِ الشيء ذاته... تكزّ على أسنانها كي لا ينالَ القادم منها.

يتوقّفُ مالاكا، يتركُ نسائم المساءِ العذبة لهنيهةٍ تُداعِب وجهه. لا أحد حوله يحرّك ساكناً. ما مِن نأمةٍ تقطع الصمت. يحتاج أنْ يأخذَ أنفاساً عميقة، يعرفُ ما سيأتي، يعرفُ ما الذي يجبُ عليه سَرده. يتطلّب الأمر التكلّم عن جسَدِ أمّه التي لم تكن أكثر من طفلة، عن جسدِ الفتاة العذراء الذي قد بدأ ينزف، والذي يُمكن أنْ يُخصَّب كجسد امرأة. يتطلّب الأمر التكلّم عن أمّه بحسيّة، عن الشهوة التي تُثيرها، عن الرغبة التي كانت في داخلها والتي بصق عليها الجميع. سيفعلُ ذلك، لا يشعر برهبة، عليه أن يأخذَ وقته فحسب. الحكايةُ تحصّنه، حين يغرق بالكلمات يغيبُ الحياء، تنأى اللياقة ولا يُحسبُ حساب لأحد. عليه أن يروي ببساطة، سيكذبُ إنْ جمّل، إنْ خفّف العنف، إنْ أغفلَ ذكر الأجساد النازفة، الأجساد التي تنزّ سائلاً عدوّاً، إنْ أغفلَ ذكر العضلات التي تخنقَ الآخر، وترغمه، وتلويه لتنتشي. ينبغي أنْ يتكلّم، فبتلك التفاصيل تغذّى غضب سالينا لسنين طوال. بالتكلّم عن ذاكَ الجسد المرضوض، عن ذاك الجسد ببذاءته الفظّة، سيُفصِح بوضوح عن الإهانة التي لم تشفَ منها طوال حياتها والتي كانت تعود إليها دوماً. فيستأنف الكلام، ونبرةُ صوتهِ مشوبة بشيءٍ منَ الجنون. «أنا، مالاكا، ابن امرأة ظلّت زمناً طويلاً خاضعة، عليَّ أنْ أروي تلكَ اللحظاتِ التي كان فيها جسدَا أمي وسارو مُتلاصِقين، مُتداخلين، يُرخي واحد ثقلَهُ على جسدِ الآخرِ ويجرحه ويسحقه، تلك اللحظات حيث يضاجعُ رجل المرأة التي يعتليها بضراوة ليسَ بقصدِ نشوةِ الامتلاك -إذْ يدرك سارو منذ البداية أنّه لن يمتلكها

يوماً- وإنّما ليؤذيها. تلك اللحظات التي على جسد سالينا، في امتناعه، أنْ يدفعَ الثمن، بحملِ وسْمِ الكدَمات والخضوع.

بلا متعة وبلا ألم. تحاولُ أنْ تهربَ خارج جسدها. تنظرُ إلى قماش فستانها الذي مزّقه، ونثرَ مِزقه حولها. تؤلمها العقود، ويُثقل عليها صدر سارو، وتنغرز حليها الذهبيّة في لحمها. لا تصرخ، لا تنبس بحرفٍ، حتّى ولو نزفت، ما الفرق... كلّ اندفاعة من حقويه تُميتُ بعضاً منها، في أعماقها. تشعرُ به، وهو يتصبّب عرقاً، وهو ينخر كحيوان، متوتراً في داخلها. تحاول بأقصى ما تستطيع أنْ تكونَ غير مُريحة، غير مطواعة ومُتصلّبة. يجتذبها أحياناً بحركة مباغتةٍ ليعيدَ الحوض في المحور، أو ليزيحَ فخذها. لا تُبدي أيّ اعتراض. تعلم أنّه لن يُردَّ عليها بغيرِ الضرب. يروح ويجيء، يلهث، ولا تلبث أنفاسه تزدادُ قوّة. يسيل عرقه عليها وتُشْعِرها رائحتُهُ بالغثيان. بعض من دم مستطلعِ العدوّ يُلطّخُ ثدييها ممّا يثيرُ هياج سارو إذ يلعقهما بجماعِ فمه. تخطرُ في ذهنها ضِباعُ ولادتها. تتمنّى لو تناديها، لو تدخل الكوخ وتسارع نحو الفراشِ وتفترس سارو... ولكن لا أحد يأتي وهو يستمرّ، باحثاً عن المتعة فوقَ جسدٍ يرفضهُ، منتشياً بتوتّر عضلات سالينا، بنفورها الأصمّ. يلوي ذراعها ويسحقها. تحاولُ أنْ تنسى نفسها. دون أنْ تعلم أنَّ ماماميالا، على بعدِ أمتار، تموتُ في النهر. تدخلُ المرأة العجوز المياه للتوّ، تدريجيّاً، بحذرٍ تقريباً. إنّه اليوم الذي اختارته لتلتحقَ فيه بعالم الأحجار والسيول وأنفاس الأشياء. تدَعُ ماماميالا قماش فستانها يعوم برهةً على سطح الماء، ثمّ يثقل ويغيبُ في التيّار، وهي كذلك تسلمُ نفسها غارقةً في المياه بأكملها على حين تشدّ ابنتها القبضتين إلى أن تُدمي راحتيها. يهتاجُ سارو، يُرغمها، يرخي ثقلهُ عليها، يكتُمُ أنفاسها وهي لا تعلم أنّ ماماميالا غاصَت إلى قرارة السيل، بعينينِ مفتوحتين على وسعهما، لأنَّ العالم انتهى بالنسبة لها في اللحظةِ التي اختُطِفت منها سالينا. وبينما أنفاس سارو، الأقرب إلى الحشرجة، تستَحوذ على المكان، ويستولي حضوره على كلّ شيء، تطلبُ ماماميالا من أنفاسها أنْ تتوقّف. هي الآن تحت الماء، استحالت روح السيل

إلى الأبد. وحين ينتشي سارو أخيراً، حينَ يستَعيدُ أنفاسه ويزيل عنه الدم الذي يلطّخُ جذعه، لا يعود شيء كما كان. تعلَم سالينا أنّ اسمهُ، من الآن فصاعداً، هو اسم الألم.

بلا شعائر حداد -أو بحدّها الأدنى، أحرِقَ كوخ ماماميالا مع كلّ محتوياته، كما يقتَضي العرف. فما يريدُ الناسُ توريثهُ يجب أن يُمنح وهم أحياء، وما يمتلكونه يوم موتهم يُحرق ليُحمل معهم. تتأمّل سالينا الكوخ الذي يتلوّى بينَ ألسنةِ اللهب ثم ينهار وسط غمامة غبار ساخن ووميض الشرر. تستعيدُ في داخلها تلك الساعات التي قضتها في فراش ماماميالا، جميع تلك الدمى القماشيّة التي صنعتها لها. يطرقُ الرجال حولها بالطبول ويغنون. لو كان الميّت رجلاً لكانتِ النساء من سيغني. وقبل أنْ يُنشئوا كوخاً جديداً في الموقع ذاته ينتظرون ثلاثة أسابيع: سبعة أيّام حتّى يبرد الرماد، سبعة أيّام حتّى ترحل الأرواح، وسبعة أيّام حتّى تمحو الريح الدموع، عندئذ تغدو ماماميالا روحاً حقّاً. ولكنّ سالينا لا تستطيع الانتظار، تعلم أنّ ماماميالا قد باتت في قاعِ النهر فتذهب إلى هناك: تخوض بتريثٍ داخل الماء لتغتسل، لتجِدَ مُجدّداً دفء أمّها، صوتها، حنانها. تخوضُ لتكون معها بضع دقائق إضافيّة وتكلّمها. «أنا لم أعد ابنتك، ماماميالا، همست لسطحِ الماء، ما عادَ صوتك يحيطُ بي، ما عادَ يناديني. ما عدتُ أشتمّ رائحتك بقربي. لم أعد ابنتك، ولشقائي سأغدو عمّا قريب أمّاً بدوري.» والعجوز تُجيبها من قرارة السيل، مُحاطةً بالحصى الذي صقلته المياه: «ما كنت يوماً أمّك سالينا.» صوتها دافئ. «الأمهات يعلَمن، يدركن بحدسهنّ، غير أنّي في الوقت الذي أبقيتك عندي، واعتنيت بك، وسعيت فيه لأنْ تكبري، كنتُ أنظر إليك بشيءٍ من الدهشة الممزوجةِ بالخشية. لستُ أمّك، سالينا، لأنّي لم أعلَم قط ما الذي يُمكن أن يبدُرَ منكِ، ولكن أحببتك. امْضِي. أحببتك وهذا أقوى من الدم.»

يصمتُ الصوتُ وتبقى سالينا في الماء لبرهة طويلة، لا تريدُ العودةَ إلى العالم، لا تريدُ العودة لملاقاةِ الناس الذين تكرههم، لا تريدُ العودة إلى

الكوخ الذي أوشكَ أن يصبح رماداً، ولا إلى بطنها الذي لا يلبث يتكوّر. لا تريدُ العودة إلى ما سينبثق منها يوماً، والذي تعلمُ ما هو جيّداً، الشيء الذي كان دائماً كامناً في أعماقها، منذ أن كانت رضيعة: صرخات ولا شيء آخر.

يصمتُ مالاكا. يستغرقُ وقتاً في التفكير بالفتاة التي يروي حكايتها. تفَطّنَ إلى أنّه لم يسمعها يوماً تصرخ. في أبعد ما تَصلُ إليه ذاكرته كانت سالينا صامتة، قليلةَ الكلام، وغالباً ما كانت تُطيل النظر إليه وهو يأكل أو على وشك النوم، ليس كأمّ تغمرُ ابنها بالنظرات، وإنّما كامرأة متفاجئة من كون هذا الولد هو ولدها، متفاجئة وممتنّة لذلك. كان يُحسّ دوماً بـ «شكّ صامتٍ» في داخلها. كأنّما كتمت الصرخات في صدرها لأنّها تنتمي للحياةِ الغابرة؛ ما عادَ من حقّها أنْ تصرخ، ما عادَ من حقّها أنْ تغضَب، إذْ لديها هذا الابن. وهو كانَ يشعرُ دوماً أنّهُ صُلحها مع العالم. يتفطَّن إلى أنّه لا يعرفها في حقيقة الأمر، فسالينا الأخرى بعيدة، سالينا الصراخ والتغريب تنتمي لعالم آخر. ثمّة شيء ابتدأ مع ولادته ألقى بذلك العالم إلى بلاد بعيدة من الصحارى والحكايات القديمة. يتكلّمُ عن امرأةٍ ليس بوسْعهِ معرفة شيءٍ عنها، عن امرأة سيشعر بالرهبةِ لو وقفت أمامه. عندئذ، يتملّكهُ الانفعال: يفهم أنّها طوالَ حياتها كأم، فعلت كلّ ما بوسعها لتعفيه من الصراخ. كظمتهُ في داخلها، أخرسته، دفنتهُ في غورِ حنجرتها لئلّا تورثه له. صارعت دوماً من أجل ألّا يعرف ابنها ما يعنيه ألّا يجد المرء من صحبةٍ سواه. فيحيّي في ذهنهِ تلكَ السالينا التي يروي قصّتها، المرأة المسعورة، العنيفة، ويشكرها كونها تنحت جانباً لتسمحَ لهُ أن يكبر.

- VI -

الابن الغضب

الطفلُ الأوّل ثمرة الاغتصاب لم يعرف غير الصراخ. شلو لحمٍ صغير تعتمدُ حياتهُ عليها، يضجّ اهتياجاً ويختنق صوته من الصراخِ إلى أنْ يحتقنَ وجهه... يُوضَع قربها، ظناً أنّها ستُدفِئه، غير أنّها ترمقهُ دونَ أن تُؤتي بفعل. يُودعُ في دموعه كلّ طاقة الحياة الكامنة فيه. تبدو أنها لا تسمعها. أيمكن أنّها تتذكّر الصرخات التي كانت تُطلقها، وهي على دروب منفاها بين يدي الفارس؟ أيمكنُ أنّها تشعر بنفسها في منزلها وسطَ تلك الدموع؟ أسماهُ سارو «مومويه» والقبيلة بأكملها احتفت مبتهجةً بهذه الولادة، إذ تَضمنُ بها سلامةَ السّلالة وتَواصل الدم. لم تُظهر أيّ اعتراض، ولا أيّ قبول. لمّا وضِع الطفل بين ذراعيها، لم تتكلّف حتّى عناء النظر إليه، تريثت قليلاً، ثمَّ وضعته في قِماط قربها. حين يلزمُ إرضاعه، تأخذه وتفكّ ثوبها، تعطيهِ الثدي وتشيح بوجهها عنه. لا تريد رؤيته، لا تريد للعاطفةِ أن تأسرها، لا تريدُ أنْ تحفظَ في ذاكرتها شيئاً عن تلكَ الطفولة. إنّه ابن العنفِ والضربات المحفورةِ في داخلها ليس إلّا. إنّه دم سارو الكريه وصورة قسْرها. تُطعمه، لأنّها تعلم أنّها ستُضرب إن لم تفعل ذلك وليس بسبب شفقةٍ يُثيرها بكاؤه. تفكّر بكانو الذي لا تراه إلّا بمصادفات نادرة، حينَ يلتئم شملُ العائلةِ حول وليمةٍ أو في أمسية، وتنظر إليهِ، عندئذ، دون أنْ تنبسَ بحرف، متأمّلة وسامته بعينين مفعمتين بالشهوة، تبتسمُ أحياناً ليعلَم أنّها له رَغم كلّ ما حدَث ولا وجود لشيءٍ آخر داخلها. غير أنّه يغضي طرْفَه معظم الأوقات، فتحنق وتقسو ملامحها. لماذا لم يقلْ شيئاً؟ لماذا لم يُعارض لا أخاه ولا أمّه؟ سمعَ عنفَ المضاجعةِ ليلةَ الزفاف -جميع الناس سمعوا- وهو لم يفعل شيئاً. ربّما

ذرفَ الدموع أو دسَّ رأسه بين الوسائد، ولكن ذلك أشدّ سوءاً... في العمق، مومويه الصغير هو ابن تخاذله أيضاً، وهذا سبَب إضافيّ لتدعه ينتحب. لا يُفارقها بكاء مومويه. وسارو يذرع المكان، خارجاً عن طوره، مُقطّبَ الوجهِ، وقد عِيلَ صبره بسببِ بكاء الطفل، عِيلَ صبره جرّاء الإهانة التي وجّهت إليه. وبوجهٍ محتقن غضباً يأمرُ سالينا بأن تُسكته: «أعطيهِ ما يريد، حليبك، ذراعيك، امنحيهِ وقتك وجسدك. فإن يبكي هذا الطفل فكأنني أنا الذي أبكي، وإنْ كان جائعاً فأنا الذي يجوع، فحاذري مما سأفعلهُ إنْ لم أكن راضياً. تقومين بذلكَ على مضض؟ تماطلين، وتدعينه ينتظر؟ فليكن، هذا لمصلحتي. سيشعرُ الصغير بسنّه هذه أنّكِ لا تريدينه، وأنّ لا شيء فيكِ منَ الأم، ولكن هناكَ من يجبرك، شيء أكبر منك وأقوى ترضخينَ له، شيء يحميه ويحرصُ عليهِ رَغم إهمالك، وسوف يدرك أنّ تلكَ القوّة هي أبوه.» تتبسَّم لتلكَ الكلمات، تأخذُ الطفلَ ببطء وتُجيبه وقد ارتسمَت على وجهها علامات التحدّي: «آخذه، انظر. أطعِمه، أجل. ولكن لن ينال شيئاً منّي، لا شيء ممّا تمنحه الأم. لن أنطقَ يوماً الاسم الذي اخترته له. لن أخاطبه يوماً. دعه يشعر أنّني خاضعة أمامك، هذا لمصلحتي. سيفهم عندها أنّ لديه أمّاً بدافع الطاعة وسيكون جرّاء ذلك مُعتلّ الروح إلى الأبد.»

وما إن يخرجَ سارو، وقد طفحَ به الكيل غلّاً، يتوقّفُ بكاء الطفلِ للحظات.

يتوقّفُ مالاكا وكأنّما أرادَ لصرخَات مومويه الصغير أن تتردّدَ في الظلمة. يرمقه دارزغار بملامح جديدة، مأخوذاً بحكايته، ومالاكا يتنبّهُ لذلك، فيستأنِفُ: «أنا، مالاكا، ابن الأمّ التي كانت تكره طفلها، لا أستطيعُ سردَ كلّ تلك الأيّام الطويلةِ التي توالت ببطءٍ مع أنّه ينبغي ذلك، ليسَ بوسْعي أنْ أجدَ المفردةَ المناسبة لكلّ لحظةٍ من اليوميات التي هي بمنزلة تهديد، إهانة، عنف، مع أنّه ينبغي ذلك، لأصفَ العذاب والإحساس أنّها تحتضرُ ببطء مسجُونةً داخل حياةٍ فُرِضت عليها، لأصفَ العنف المختزنَ في كلمة، أو لكمة. وجودُ سارو قسوة بالمطلق. ينبغي قول كلّ شيء: تلَفُ الروح، الغضبُ والحزن لكلّ يومٍ بيومه. يجبُ، وإلّا لن نستطيعَ فهمَ الحقدِ الذي

يتراكم. ثمّة صبا مُقتَلع وجسد مُعنّف، ثمّة وجه يهان دون توقّف. ينبغي إيجاد كلمات لتوصيف الشعور أنّ لا شيء يُنتَظرُ من الحياةِ سوى أن تكونَ خنوعاً طويلاً، طويلاً بشكل لا نهائيّ، حتّى القبر...»

تعودُ الحرب. كانت تحومُ، جيئة وذهاباً، مُهدّدة، كذبابة. لدى مملكةِ الجنوب أطماع جديدة وترغبُ في إخضاعِ مدن الصحراء. ربّما تريدُ وضعَ يدها على الخانات الكبيرة والسيطرةِ على تجارة التوابل؟ أو ربّما الملك سالْميّه يحملُ ضغينة على آل دجيمْبَا وقد آلَ على نفسه أن يحيلهم هباء؟ تمضي السنوات ولا تلبثُ المناوشات تزدَادُ اطّراداً. وفي اليوم الذي يبلغُ فيهِ موميه عامهُ الثالثَ عشر، عمر المُشاركةِ في القتال تقريباً. تُجهزُ أوّلُ معركةٍ كبيرة. يدخلُ سالْميّه أراضي آل دجيمْبَا. يتمنّى سارو أنْ يشارك موميه -ليغدو ولدَهُ رجلاً مكتملاً بأسرع وقت- غير أنَّ خايا تعتَرض وبصوتٍ جافّ تطلبُ من ولدها البكر بأن يمضي وحدَهُ إلى ميدانِ المعركة فلا يصرّ وهو في غمرة انشغالاته بالاستعدادات. لا يفارقُ سيفه التاكوبا ويرسم على وجهه كلّ صباح شارات الموتِ بالأحمر والأبيض ليزرعَ الرعب في أفئدة أعدائه قبل قتلهم. تعودُ الحربُ وتستولي على كلّ شيء. إلى أن أتى اليوم الذي أعلن فيه عن المعركة، إذ باتَ الأعداء مُفرطي القرب. يعمُّ الاضطرابُ متنقّلاً منْ كوخٍ إلى آخر فيحشد سيسوكو العجوز الجميع، ويعلن أنّ اليومَ يومُ الهجوم وأنّ ولديه كانو وسارو هما من سيقودانِ الرجالَ إلى الحرب هذهِ المرّة. لقد غدا كلّ شيء جاهزاً فيُسارعُ الرجال مهرولين -كأن لا شيءَ يضاهي جمالَ الموتِ المقبل.

تقفُ متوترةً بلا حراك وسطَ القرية وقد فرغَت الخيام من جميع المحاربين. مضَت دقائق طويلة على رحيلهم ولا بدَّ أنّهم وصلوا نقاطَ المواجهة. تحاول أن تتخيّل الاشتباكات الأولى بين آل دجيمْبَا ومحاربي سالْميّه. تتساءل كلّ لحظة إذا خاض سارو في المعركة، إنْ كانَ في البرهة

التي تَتنفّسُ فيها يَضربُ أم يُضرَب... إنّه يوم دمويّ، تشعر بذلك. لطالما كان بوسْعها الشعور بذلكَ، عندما تتحفّز الحواس، وتَطرقُ الطبول في الشرايين مؤجّجةً في داخلها الرغبةَ على العضّ والرقص والصراخ. إنّه يوم دمويّ ولربّما هو اليوم الذي سيقضي فيه سارو نحبه... تُحاول تخيّلَ الأعداء المحيطين به، وصدّه الضربات في البداية، ثمّ الجراح الأولى التي تأتي مع التعب، والحذر الذي يتناقص، والأنفاس التي يصعبُ التقاطها، والتسديدات التي تزوغ وتقلّ دقتها، والانقضاض الذي يغدو أقلّ بأساً. تُحاولُ تخيّلَ واحدٍ من الأعداء، لن تعرفهُ أبداً إلّا أنّها تباركه، يقتربُ من سارو وبحركةٍ مباغتة يقصل رأسه أو يغرز سيفه في أحشائهِ حتّى الواقية. ترجو أنْ يكونَ ذلكَ واقِع الحال. إنّه يوم دمويّ، تشعرُ بذلك، فينتابها القلق إذ تتساءل في سرّها إذا ما كانَ كانو هو من يموت الآن. يؤرقها هذا الهاجس، صورةُ كانو وهو يخرّ صريعاً على التراب... ما عادَ بوسْعها الصبر، يجبُ أنْ ترى، أنْ تعرف، فتتجاهلُ عرفَ الأسلاف القاضي بانتظارِ النساء للمُحاربين في القرية، وتركض نحوَ ميدان المعركة.

تركضُ، ليس للمسافةِ أهميّة، ولا للقيظ أيضاً. إن كان اليوم يوم تحرّرها، فبوسعها أن تركض حتّى تخوم الصحراء. سُرعان ما تنتصبُ أمامها تلّة الحجارة. تعلمُ أنّ ميدانَ المعركة في الجهة الأخرى، تُشعرها الرائِحةُ بذلك، فقد بدأت الطيورُ تحوم. تَصعدُ بمشقّة متوكئةً على يديها، مُتشبثة بالأحجار، تصعدُ، وبعد أنْ تصلَ قمّة الهضبة، ترى مكان الاحتضار الكبير للحربِ حيث التوالي القذر لأجسادٍ محطّمة، تئنّ. الذين ذهبوا قبلَ ساعاتٍ بابتسامات مختالة، مُتعهدين بأنْ يذيقوا أعداءَهم أشدّ العذاب هم هناك، مشوّهون، وقد همد صلفهم، وأصابهم الوجوم إذ يلفي واحدهم نفسه طريحَ الأرضِ بدلَ أنْ يكون الظافر. المعركة انتهت. من المُحال الحسم مَن انتصرَ ومنْ هُزِم. غادر المُحاربون ميدان المعركة ولم يتبقَّ غير المحتضرين. تسير فوق الأجساد. «عساهُ هنا»، تكرّر لنفسها بصوتٍ خفيض. تتمعّنُ في الوجوه، تأخذُ الوقتَ اللازم لتُدير جثّة أحياناً، لا شيء

يُخيفها بعد الآن، «عساهُ هنا»، وفجأةً تتجمّد. على نحو عشرة أمتار أمامها، تتعرّف على جسد سارو مباشرة، ممدّدٌ على الظهر والرأس ناكس نحوَ المنحدر، في البدايةِ تلبثُ لا تجرؤ على الحراك، لا تصدّق عينيها، ثمّ تقترب، بتردّد، خشيةَ أنْ تكتشِفَ أنّها مخطئة، غير أنّها كلّما اقتربت يزداد تمييزها لتفاصيل درعه، واقيات ربلتي ساقيه، إلى أن ترى وجهه؛ فاغر الفم، يحشرج، والعينان مفتوحتان واسعاً على الطيورِ الحائمة، وثمّة جرح بليغ يشقّ البطن، هو سارو بالفعل. اليوم يوم دمويّ. تقترب، قرباً مفرطاً، إلى أنْ يستطيعَ رؤيتها. لا تنحني نحوه، تُحافِظُ على استقامة قامتها. ظلّها الذي تُرخيهِ عليهِ يرعشُ هُدْبه فجأة. يُديرُ رأسهُ بحركةٍ خفيفة. «تراني، سارو؟ تسألُ بحماسةٍ. انظر. إنّي ثابتة بلا حراك» مُحافظةً على استقامتها تماماً. «أتبسّم. إذْ يكفي ألّا أفعلَ شيئاً لتموت. انظر، سارو، أتركَكَ لما آثرته طوال حياتك: الحرب والدم والضربات. أتراني؟ بلى، أعرف أنّك تراني، تكشيرة امتعاض عبرت وجهك. سوفَ أعيشُ بعدكَ سارو، في منأى عن وحشيتك. لن تؤثر مشيئتك على حياتي بعد الآن. أنتَ تحتضر سارو، وآخر وجه ستراه هو وجهي ولكن بالكاد تتعرّف عليه لأنّه تحرّر ممّا كنته أنت.» وسارو ساكن لا ينبس بحرف، على الأرجح ما عادَ لديهِ القوّة على نطقِ ولو كلمة أو ربّما حتّى لم يفهم ما قالته، لا يَسمعُ سوى نبرة صوتها، ثم كازاً على أسنانه، مغلوباً بالغضبِ المكتوم، ينتهي إلى فعلِ ما تنتظره الطيور، ما تنتظره سالينا والعالم برمته: يتصلّب ويموت. تلبثُ بعضَ الوقت، جامدة، متنبّهة، كأنّها تريدُ التأكّد أنّه لن يستردّ وعيه. تنتظر، تملأ نفسها بهذا الصمتِ الجديد ثمّ توليه ظهرها فجأة وتشرعُ بالركض -كما لم تفعل منذ أنْ كانت طفلة- تركض حتّى تتقطّع أنفاسها. تغادر ميدان المعركة وجثّة سارو، تُغادرُ الجوارحَ التي ضيّقتْ حلقة طيرانها إذ حدّدت الجثث التي اختارت الانقضاض عليها. تمضي مباشرة نحوَ القريةِ لا شيء يُفزعها بعد الآن. سارو مات وأعرافُ الأسلاف ستقدّمُ لها الحياةَ التي كانت تتمنّاها.

بعدَ وصولها القرية، تقفُ أمام كوخ آل دجيمْبَا الكبير وتشرعُ بأهزوجة

الحداد. «أوَّه، أوَّه، ماتَ بَعلي... أوَّه، أوَّه، بأسهُ بقي طريحَ ميدان المعركة...» تغني بحماسة وسرعان ما بدأوا بالخروج جميعاً. يشيعُ الخبر: سارو مات ...؟ تسألُ النساء المحاربينَ الذين كانوا في المكان بأصواتٍ هامسة. يؤكّد بعضهم أنّهم رأوه يسقُطُ بالفعل، «أوَّه، أوَّه، اندبوا المُحاربين الذين سقطوا اليوم ولن يطلعَ ضوءُ الفجر عليهم ثانية»، تتَّسع الجمهرةُ حولها. سارو مات والوجوه تَشحبُ. تُواصلُ غناءَها، لا شيء يخيفها بعد الآن، «أوَّه، أوَّه، ضعوا اسم بعلي في سجلّ المُظفّرين فقد قضَى نحبه»، تظهرُ خايا العجوز أخيراً متسربلةً بثوب الحداد، لا تسأل أيّ تفسير، ولا تشكّك بكلمةٍ قالتها سالينا. ربّما عرفت بالخبرِ من قبل، أو ربّما شعرت بالموت في أحشائها في اللحظَةِ التي طُعنَ بها سارو؟ تقفُ بقامةٍ منتصبة أمام سالينا. يدنو الرجال، المحاربون الذين عادوا من المعركة وحتّى الجرحى منهم. يَحضرُ كانو أيضاً جوار أبيه. لا تنتظرُ سالينا أكثر من أنْ تكونَ القرية بأكملها حاضرة. إنّه أوان محو الآلام، إزاحة اللعنة التي لم تلبث تحومُ حول حياتها، «أوَّه، أوَّه»، لا تُضيّعُ وقتها في طلبِ إحضار جثّة زوجها، لا تريدُ أنْ تتصنَّعَ البكاء عليه. لن تتمرّغ بالتراب وهي تنوحُ متحسرةً، وهي تترنّح غامسةً يديها بالجرح لتلطّخَ وجهها بدم الراحل وتشعرَ بدفئهِ للمرّة الأخيرة، لن تفعل شيئاً ممّا تفعله الأرامل، وخايا تعلَم ذلك. وإذا سالينا تقفُ أمامها فليسَ من أجلِ ذرف الدموع، وإنّما لتوجّه لها الطعنةَ النهائيّة، لتصفعها أمام الجميع وتغسل إهانة الزواج وإهانة ولادة مومويه وكلّ جرحٍ أصابها، لذا تهزجُ بَعد، «أوَّه، أوَّه»، تعلمُ أنّها محميّة بتقاليدِ أسلاف القريةِ التي حتّى خايا دجيمْبَا مُجبرة على الرضوخ إليها، «موتُ بعلي يتركني بلا رجل ويترك الابن الذي ولدته من سارو بلا أب. وآلهة قريتنا لا يرضيها ذلك». تلتفتُ نحو خايا، وتُحدّق في عينيها، «خايا، بحقّ موت سارو، أطلبُ منكِ ولدك الآخر زوجاً. أطلبُ أن أصبحَ امرأة كانو بما أنَّ العرفَ يقضي أنْ أظلَّ من آل دجيمْبَا». والمرأة العجوز تلبثُ جامدةً دون حراك، كلمات سالينا تنزلُ عليها كصفعة لكنّها تعلم أنَّ ليس بوسْعها الاعتراض على ما تقول. يلبثُ كانو مشدوهاً، حائراً بينَ أنْ يبكي أخاه أو يُشجّع سالينا. القرية بأكملها تُصغي مُسمّرة. «أوَّه، أوَّه،

باسم تقاليد الأسلاف يا خايا ليسَ بوسعكِ أنْ ترفضي، يجبُ أنْ أكونَ امرأة كانو.» تنتصبُ سالينا أمام القبيلة برأسٍ شامخ محدقةً بعيني تلك المرأة التي لم تكن سوى كتلة حقد. ستتغيّر الحياة أخيراً، وما سُلبَ منها سيعودُ إليها؛ اللعبُ اللانهائيّ مع كانو، الرقّة ليدٍ تُلاطِف، الأبناء الذين سيأتون حاملين أسماء ويغدونَ محطّ إعجاب. وحتّى ستحاولُ أن تحبّ مومويه إذا طلبَ منها كانو، ستُحاول من قلبها وتبذل فيه قصارى جهدها. ما عادَت تحيدُ ببصرها عن المرأةِ العجوز، لطالما تأمّلت هذا النصر. فلا تلاحظُ الوجوه حولها التي التفتَت نحوَ الطريقِ الخارجي، ولا تشعرُ بتلكَ الهمسة التي تسري بين الحشد بسرعة. تظنّ أنّها كسبت كلّ ما تصبو إليه. وعندما يعلو ذلك الصوت فقط تلتفت وترى رجلاً غريبَ الهيئةِ، مرتدياً أسمالاً، ينحني باحترامٍ جمّ أمام سيسوكو ليحيّيه ويتبسّم مُحرجاً.

يقول: «سيسوكو دجيمْبَا، ابن موسوكيه دجيمْبَا، سليلُ صارعي الفهود، أصْغِ إليّ. أولغو المجنون مَنْ يُخاطِبك»، ويكتنِفُ سالينا شعُور بحضورِ الشؤم منْ جدِيد، «إنّي ناسك وأعيش في نواحي القرى، الناس جميعاً سيؤكّدون لك ذلك. أكلّمُ الحجارة، وأصدحُ عالياً في بعض الليالي لأرقّصَ النجوم». يتكلّم أولغو ويُصغي الجميع إليه. يعرفُونه. كانَ بعضهم يتصدّقُ عليه أيّام الوفرة بإعطائهِ بقايا وجباتهم، وتتركُ له النساء أحياناً ثياباً على التلال فيتلقّفها مثل حيوانٍ بريّ ينقضّ على طريدة، غيرَ أنّه يمضي مُعظم الوقت شبه عارٍ، أشعثَ تقريباً، ويتغذّى على الحشرات ويتكلّم إلى جسَدهِ كأنّه يُخاطب مجموعةَ أفراد، وبينما يتحلّق الجميع حوله مُنتظرينَ سماع ما أتى ليقوله، وإذ به يأمرُ فمهُ بالمتابعةِ قائلاً: «انطق أيّها الفم... انطق، بما أنّك تعرفُ الكلمات، اسأل العيونَ عمّا رأته وارِوِ...» ويستأنفُ. «سيسوكو، أنتَ تعرفني، أنا أقفُ دوماً بعيداً عنكم إذ ليسَ لديّ رائحة البشر، حياتكم تُشعرني بضجيجٍ كبير. أنا نابِش الصحراء أبحثُ عن قُوْتي، ألعقُ الحجارة، وأقتاتُ على النمل فلا حاجةَ لي أطلبها منكم. ولكن حين يَشنُّ البشرُ الحروب فيقتُلُونَ ويُقتَلُونَ، تتاحُ لي وليمة عامِرة. أجدُ نفسي أمام فائضٍ من الأجسادِ والأغراضِ والحقائبِ والمؤن، فألعقُ ما يَسيل وأحصلُ على ما تبقّى.

البخلُ ليس من صفات الموتى. أسلكُ سلوكَ الطيورِ التي تحومُ بصبرٍ فوقَ مجازركم. واليوم أيضاً، ميدانُ المعركة الكبير كانَ يغصُّ بالجثث. فرحتُ أسيرُ متنقّلاً من جثّةٍ لأخرى، أنتظرُ أنْ ينتهي كلّ شيء. أغتَني بما يتركهُ الأموات. آخذ، أرتدي، أتحقّقُ ممّا تحتويه الحقائب. ولكن دائماً أنتظرُ أن يلفظَ المحتضرونَ أنفاسهم الأخيرة، وإلّا فذلكَ سيكونُ سرقة، ولتقطَع يداي الاثنتان إنْ كنت يوماً أخذتُ شيئاً منْ أحدٍ على قيدِ الحياة...»

يبدأُ رجالُ القريةِ ونساؤها يتَساءلون عمّا يرمي إليه الناسكُ هذا بكلامه. تشدُّ سالينا على قبضتيها. ثمّة شيء يقترب، تشعرُ به، تهديد ما. والابتسامة التي ترتَسمُ على وجه خايا تُضاعفُ منْ قلقها.

«كنتُ اليوم هناك حيث المقتَلةُ على أشدّها. وبعدَ الهجوم، حلّت ساعة الاحتضار. فأخذتُ أتنقّلُ من جثّة إلى أخرى، ورأيت ابنك سارو طريحَ الأرض. كنت قريباً منه جدّاً ولكن لم آخذ منه شيئاً فقد كانَ لا يزال حيّاً، أقسم بذلك، وأنا لا أسرق -سبق أنْ قلتَ ذلكَ أيّها الفم-، أنتظرُ الأمواتَ أن يُعطوا من تلقاء أنفسهم. سارو كانَ يتنفّسُ ويرمش، رأيتهُ فابتعدت. وفيما بعد، رأيتها أيضاً» ويشيرُ نحوَ سالينا بطرف إصبعه، «هي -أشر نحوها جيّداً أيها الإصبع!-، اقتربَت، وأقسمُ على ذلك، بينما لا يزال حيّاً، كلّمته. لا أعرفُ الكلمات التي قالتها له لأنّي كنتُ بعيداً، لكنّي رأيتُ أنّها لم تنحنِ نحوه ولم تنقذه، لا شيء من هذا القبيل. كانَ زوجها تحتَ بصرها، يحتضر، وكان يُمكنُ أنْ تجرّه ربّما، تنقذه، كانَ ذلك لا يزالُ مُمكناً، بالتأكيد، غيرَ أنّها ظلّت مُنتصبة، وتركتِ الدمَ يسيلُ دون أنْ تحاول تضميدَ الجروح، أقولُ إنّها هي، الزوجة، لم تفعل شيئاً وأقسم على ذلك. وهذا ما أتيت لأقولهُ، أنا أولغو، قبل أنْ أعودَ إلى حجارتي.»

يلتفتُ الجميع نحوَ سالينا، فجأة. لا تَضعف. تعلمُ أنَّ كلّ شيءٍ يتبخّر: آمالها بحياةٍ دافئة، يدَا كانو، أبناؤها الذينَ سيولدون من فراش سعيد. كلّ شيءٍ يتبخَّرُ وزيادةً على ذلك كان ينبغي أيضاً تجرّع الكأس حتّى الثمالة، كان ينبغي أيضاً رؤية وجه خايا وهو يَسْطع بضوء وحشي والإصغاء إلى كلماتِ اللبوة التي تخرج من فمها حينَ تنفجرُ «أنتِ، أيّتها الرجِيمة...! أكنتِ تظنين

أنْ تأتي إلى هنا وتَستَحوذي على ولدي الثاني؟ أكنتِ تَحسبينَ أن تهينيني، أن تبصُقي على اسمي وترقصي على جثة سارو التي لا تزال دافئة...؟» كان ينبغي أيضاً رؤية إشارة سيسوكو الذي يرفع ذراعه ليصمتَ الجميع ويبادر إلى التكلّم بجفاءٍ من تعرّضَ لإساءة: «أنا، سيسوكو دجيمْبَا، الأب المهان أقول لكِ إنّه من المفروض أن أقتلك بيديّ، سالينا، لآخذ بثأر سارو. المفروض أنْ أحرص ألّا تُغطي جثتك أيّ حجر بما أنّك لم تجلبي إلى هذه القريةِ سوى البلاء، ولكن لا أستطيع فعل ذلك. آلهة وحشيّة لا نعرف عنها شيئاً تحميك. آلهة ربما لا تنتظرُ منّا غير حركة دم لتنقضّ على قريتنا وتسحقنا. أتيتِ من مكان لفرطِ بعده لا أحد يعرفه، أنتِ لا تجلبين غير الدموع، سالينا. لن أقتلك ولكنّي أطردكِ ولتصنَع بكِ الصحراء ما تشاء. لن تنالي سوى الوحدة والتيه. سنُبقي مومويه عندنا نربيه على ذكرى أبيه. سنُبقي مومويه الذي لم يكن ولدك يوماً.»

كانَ ينبغي أيضاً الإصغاء لتلك الكلمات ورؤية وجه كانو الذي لا يقول شيئاً، يُطرق بصره، ولا يحاول أنْ يقلبَ المصير، أنْ يقنعَ العائلة أنّ سالينا لم تقتل سارو، أنّ الحرب هي منْ أودت به. كان ينبغي أيضاً رؤية الاشمئزاز مُطلّاً من نظرات الجميع، كان ينبغي أيضاً التعرّضُ إلى بصقاتِ النساء بعد أنْ أعلنَ سيسوكو النفي، والإذعان للمُحاربين الذين يقتربون منها بهيئاتٍ فظّة مُعلنين أنّهم سيرافقونها إلى كوخها، وينتظرون ريثما تأخذ بعضَ الحوائج ثمّ يجبرونها على الرحيل، وسيرافقونها إلى أنْ تخرجَ من أراضي آل دجيمْبَا. كان ينبغي ذلك كلّه كي تشعرَ أنّ حياتها بأكملها سُلبت منها للتوّ.

عندها فقط، بعدَ أنْ تصبحَ بمفردها، بعدَ أنْ تجتازَ أبعدَ من الأراضي التي تعرفها، وكان المحاربون قد استداروا وعادوا بخطواتهم الثقيلة إلى القرية، عندها فقط، تستطيعُ أنْ تصرخ، لكنّها لا تفعل ذلك بفتح فمها. تشعرُ أنَّ غضبها لا يستطيعُ الخروجَ من بين فكّيها. إنّه أكبر، يتجاوز كلّ حدّ. تسير أياماً ولياليَ تاركةً تلكَ الصرخة تتصاعد في داخلها. ما عادَت تأكل أو تقتصرُ على الأعشاب المسروقة من الشمس، وتروي ظمأها برفعِ الحجارة

التي تُخفي خيوطَ ماء رفيعة أو بلعق الحصى لتجني منها بضع قطراتٍ من الندى وتتضخّم، لا تلبثُ أنْ تزداد ضخامة. ثمّة ما ينمو داخل أيّام العزلة تلك. تمضي جيئة وذهاباً وبطنها ما زال يتضخّم. لا تحتاج تسعةَ أشهر لتلدَ ما تحمله، بل تسعة أيّام فقط. وعندَ نهايةِ اليوم التاسع من النفي، تجلسُ بظهرٍ مرتدّ إلى الخلف فوقَ كثيب رمليّ، ومنْ كان ينمو في داخلها بوسعه أخيراً أنْ يخرجَ. تصرخ، مثل امرأة تلد، منفرجةَ الساقين تتصبَّبُ عرقاً، تدفَع بأقصى قوّتها مانحةً الحياة لوليدها الغضب. تسعة أيّام من الحمل كي يولد كورا كومبا، لا يأتي كما أتى مومويه صغيراً مثل جرو مُحتقن جرّاء الجهد ليعيش. يأتي كورا كومبا باكتمال رجل، تقذفه على ذاك الكثيب، في الليلةِ التاسعةِ من منفاها الثاني. أصبح لديها الآن ابن، ابن لها وحدها، ابن أضخم وأشدّ بأساً من أيّ محاربٍ في القرية. تحتفي به، تغمرهُ بالحبّ، تقبّله. لديها الابن الذي سوفَ يغدو الذراع المُسلّحة لثأرها.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

- VII -

نزالُ الإخوةِ

يصمتُ مالاكا. انقضت عدّة ساعات وهو يتكلّم والآن يبزغُ عندَ الأفق أوّل ضياء للفجر. تظهر حولهم بضعة قواربَ، ليست مُتّصلة مثل القاربين الأوّلين. تنتَظمُ بعضها بتتابعٍ خلفهم وأخرى ترافقهم على الجانبين. ينظرُ إلى ذلك الأسطول الصغير، ذي الأشرعة المبرقشة، من الصيّادين والتجّار ويبدو عليهِ الشك بما ينبغي فعله. يلاحظُ دارزغار العجوز تردّده فيقولُ له:

«لا يجب أنْ تُقصَّ حكاية الميتِ إلّا ليلاً. في النهار تختفي الأرواح تاركةً الحياة تدبُّ في المدينة. بوسْعكَ أنْ ترتاح. تناول بعضَ الطعامِ إنْ شِئت.»

لم يكن منتبهاً إلى الجلبةِ الجديدةِ التي تهزّ الزوارق. إذ تمرّر النساء منهمكات، في جميع الأرجاء، أكواباً من يدٍ إلى يد. تتجمّعُ القوارب إلى أنْ تغدو متلامسة، يتبادلون الأكياس. يكتنفهُ شعور أنّ المدينة بأسرها هنا، على صفحَةِ المياه، أنَّ المدينةَ بأسرها أتَت تسمعُ قصّته آخذةً استراحة من حياتها بوصفها مدينة. تقدّم له امرأةُ الصيّادِ ثلاثة أكوابٍ مختلفةَ الألوان. يحتوي الأوّل على حساءٍ باردٍ من لحم الطيور، والثاني على أرز وثمّة ثمرة فاكهة في الأخير لا يعرفها إلّا أنّ المرأة قد حرصَت على تقشيرها. يشكرها ويأكل.

يتسلّلُ النعاسُ سريعاً إلى مالاكا. كانت قد أُسدلت قماشة من الكتّان السميك بين الصاري ومؤخرة القارب لترخي عليه بعض الظلّ ويغفو. يحاول لبرهةٍ البقاء مُستيقظاً ليتأمّل ضفاف الجزر التي تقتربُ لكن دون جدوى. وبينما يتسلّل خدَرُ النعاس إليه وإذ تتناهى إلى مسمعهِ أصواتُ الصخَبِ المحيطَة به: الذين لم يسمعوا قصّة سالينا، وكانوا بعيدينَ عن

التقاطِ الكلمات التي كان ينطقها، اقتربوا وطلبوا من الآخرين أن يكرّروا على مسامعهم ما قيلَ أثناء الليل. يكرّر الصيّادون كلّ شيء بنبراتٍ جادّة للغاية، محاولين إعادة سردِ أدقّ التفاصيل، تاركين الأكثر دقّة بينهم والحريصين على إبراز حدث ما، أنْ يصوّبوا لهم جملةً هنا أو جملة هناك. وعلى هذا النحو يغفو مُحاطاً بجوقة أصواتٍ هامسةٍ تُعيد وتنشرُ قصّة المرأة التي يَحملها إلى المقبرة.

عندما يستَيقظُ بعد بضعِ ساعات، يجدُ القارب تهدهده ترنّحات الأمواج. غابت الشمس وضياء النهار يأفل على مرمى البصر. الأسطول كلّه واقفٌ وينتَظرُ على ما يبدو أنْ يستكملَ قصّته. فيتكلّم من جديد وتبدأُ الليلةُ الثانية للكلمات:

«أنا، مالاكا، ابن أمّ ولدَت طفلها بنفسها، أستأنِفُ القصّةَ عن سالينا التي تركتها في الرمل، إذ هناك عاشت دوماً. ولدَ كورا كومبا مُتشوّقاً للقتال، لم تجلبهُ إلى الدنيا إلّا لهذهِ الغاية. أجيءُ على سيرة ذلك الأخ الذي لم أعرفه غير أنّها كلّمتني عنه مراراً، وكانت الدموع تطفرُ من عينيها زهواً وحزناً. أقول «أخ» ولا أعلم إذا كان كورا كومبا كذلك حقّاً، فلم يكن لنا الأمّ نفسها. المرأة التي ولدتهُ كانت مُتشبثة بشهوتها للنهش، تريدُ أنْ تسفكَ دم الكثبان. لهذه الغاية ولد، ليبدأ الثأر ويُعاقبَ آل دجيمْبَا.»

كورا كومبا أضخمُ من معظم الرجال. له نظرات حاقِدَة، ويتنقّلُ متلفّعَ الرأسِ بأوشحةٍ تقيهِ عواصفَ الرمل، عارِ الجذع، يبدو أنّه ولدَ ليتحدّى الشمس. سالينا بيديها دهنَت جسدَه بالزيت، وصنعت له من حجارة الصحراء سيفَ تاكوبا. أمضَتْ ساعات طويلة في صقل ذلك السلاح إلى أنْ سالَ الدم من أصابِعها، ليغدو بتّاراً إلى أقصى حدّ. ولمّا أصبحَ كلّ شيءٍ جاهزاً، يقبّلُ يديها ويُغادر كثيبَ مسقطِ رأسه. وعندها يبدأ الجري الطويل في الصحراء، الجري الذي مِلؤه التحدّي والانقِضاض والدم. يُصادف

قوافلَ من التجّار، يقطَعُ الطريقَ عليهم، يقتلُ ويحرقُ كلّ ما يحمل شاراتِ آل دجيمْبَا. علّمتهُ سالينا أن يميزها. ينشرُ النار والدم على الطرقات. ويعلنُ عن اسمهِ في كلّ النواحي: كورا كومبا ابن سالينا، ابن غضبها، ليتناقله الجميع ويعلموا أنّ هناك مخلوقاً، عجيباً، يتحدّى سيسوكو وقومه. وما لا يعلمه أنّ الحرب بين آل دجيمْبَا وساللْميّه اشتدّ سعيرها والمعاركُ في أوجها منْ أجلِ السيطرةِ على الأسواق. فيظنّونَ في البدايةِ أنّه مُحارب منَ الجنوب، مرتزق أشد إرعاباً من الآخرين. لا يريدُ الخلطَ بينهُ وبين مقاتل لساللْميّه ولهذا السبب يقول اسمه، ويكرّره دونَ كلل: «كورا كومبا» وينتهي الأمر بهذا الاسم بأنْ يصلَ مسامع سيسوكو، زعيم دجيمْبَا، الذي تشحبُ ملامحهُ فيرسل ثلاثةً من أفضل محاربيه ليبحثوا عن ذاك الرجل الذي يُحكى أنّه ولدَ من الكثبان. يعودونَ سريعاً بعربة يجرّها حمار، الثلاثة مذبوحون والطعنات تغطي أجسادهم، لم يترك لهم كورا كومبا أيّة فرصة وقد قطّع أوصال جثثهم ليرتعدَ الجميعُ أمام ما يستطيع فعلَه. يستشعرُ سيسوكو أنّ في الأمر ما لا يفسّر غير أنّ ذهنه مشغول بهجمات ساللْميّه، إذ يرى أنّها أكثر إلحاحاً بيد أنّه كان يجافي الصواب، فلم يتهيّأ للنزال بينهما غير أنَّ النزال قد وقع. يتَصادفُ الرجلان قربَ النهر. أخيراً، وجهاً لوجه. شاخ سيسوكو ولم يعد المحارب الذي كانَ عليه. يتفرَّس كورا كومبا في وجهه بتروّ، ثمّ يتبسَّم ويتحدّاه. يعلن له اسمه، ويقول له ممن ولد، ويتوعّده بالطعناتِ التي سيُئخن بها جسده. «الموت لك سيسوكو.» ويقول له إنّ الموتَ لن يكون نهاية عذابه، وإنّ ثأر سالينا لن يرتوي بموته، وإنّ روحهُ لن تعرفَ الراحة، «القلق لك، سيسوكو»، بما أنّ سالينا محكومة بالنفي. يتوعّدُهُ بأن بعدَ حياتهِ سيسلُبُ حياة جميع محاربي قبيلته، من كبيرهم إلى مومويه لتغرق السلالة بأسرها في الدم وهي تذرفُ الدموع، «الدموع لك، سيسوكو.» يتوعّدهُ بذلك كلّه بنبرةٍ ملكيّة، وبعدَ أنْ فرغَ ممّا أراد قوله، وقبلَ أنْ يتسنّى للرجلِ العجوز أنْ يتصرّف، ينقضُّ عليه وبحركة واسعة من سيفِ الصحراءِ المسنون يقصل رأسه. لم يقوَ سيسوكو على فعل شيء. الضربة كانت مفرطةَ السرعة، واليد مُفرطة الحزم، والحياة راحت

تهربُ من رأسهِ المقطوعِ بتدفّقاتٍ غزيرة. غير أنَّ ذلك لا يكفي إذْ قالَت له سالينا إنّ الثأر لا يقفُ عندَ هذا الحدّ، فيجثو كورا كومبا فوقَ الجسدِ الذي ما زال دافِئاً وكما يُفتحُ بطنُ سمكة يشقّ جثّة الرجلِ العجوز بحركةٍ جافّة وينتزعُ عموده الفقريّ وسط الأصوات المكتومةِ لتدنيس حرمة الأجساد. ثمّ يجرّه خلفهُ كأفعى طويلة من الدّم. لاحقاً، ستبكي خايا، ليس على موت سيسوكو -فقد ماتَ محارباً- وإنّما على جسده المبقور والمتروك نهباً للضواري. ستبكي خايا على الانتقامِ المقطّع الأوصال الذي خلّفَ سيسوكو غير مكتملٍ للأبد. لا راحة للجثثِ المتناثرة الأشلاء، لا راحة في الأبديّة لمن بُترَ منه عضو.

عند عودةِ كورا كومبا إلى الخيمة، تتولّى سالينا أمرَ الأضحية التي أحضرها لها فتوقدُ ناراً وتضع فيها العمود الفقريّ لتخليصهِ من اللّحم، ثمّ تدعكهُ بالرّمل، وبرفق، تفصل كل فقرة على حدَةٍ. أربع وعشرون فقرة اسْتحالَت أربعاً وعشرينَ عظمة صغيرة مُنفصلة تدسّها في حقيبتها الجلديّة، ثمّة في داخلها مُتَّسعٌ لانتصارها، تحملها في راحةِ يدها، لانتصارها طَقطَقة حصى تتَصادم. بعد أنْ ينتهي الطقس، تنظرُ إلى الفقراتِ بشغفٍ وتقول لابنها:

«انظر يا ولدي، هذا ما سيقلبون البقاع كلّها بحثاً عنه، سيكونون على استعداد لأن يذرعوا كلّ شبر من الأرض، لأن يفتّشوا رمل الكثبان ليعثروا على عظام أبيهم. سوف أخفيها واحدة واحدة في أربعِ زوايا الصحراء، في أماكن لا يعرفها غيري. سأدسّها في الرمل والكثبان نفسها سوفَ تنساها في النهاية. انظر يا ولدي: لكي تكون الفقرة الأخيرة في أكثر مكان في العالم لا يُطال، أعطيها لك، لتتقلّدها حول عنقك ولن يستطيع أحد أبداً أخذها، لأنّ لا أحد أبداً بوسعهِ أن يهزمك. حتّى وإن استطاعَ آل دجيمْبَا إيجادَ جميعِ الفقراتِ فستظلُّ هذه ناقصة وبذلك سوف يمضي العجوز سيسوكو إلى الأبديّة برأس مطأطأ، مَوْسوماً بلسْعةِ سالينا.»

في جنازة سيسوكو، لا أحدَ يغني ولا صلوات مقدّسة تُرتّل، حظرت خايا ذلك. فهي تعلَم أنّ زوجها لن يرقدَ بسلام. لزمَ النساء يومان لخياطةِ الجثمان حاشرات أعشاباً عطريّة في الجروح. «ادفنوه جالساً على مِقعده الذهبيّ»، أمرَت، والرجال أطاعوا. حفروا بالأرض عميقاً ثمّ بعنايةٍ أجلسوا زعيمهم. «سوف ينتظر على هذا النحو، فسّرت خايا، إلى أنْ أعيدَ ما سرق منه.» وبينما تهبّ الريح على مهل، كانسةً موضعَ القبر، وإذا بها تُخاطِبُ الجميعَ قائلةً إنّها راحلة، وإنّها لن تكون ملكةً بعدَ الآن، وإنَّ عالماً جديداً يبدأ، وإنَّ السلطة تنتقل إلى كانو من الآن فصاعداً، الذي عليه الحرصُ على مصير آل دجيمْبَا، وقيادةُ الحرب ضدّ رجال سالْلميّه. يقبلُ كانو المهمّةَ بصمتٍ دونَ أن ينبس بحرفٍ، ومن مساء اليومِ ذاته يبدأ بإعطاء التعليمات، من داخل كوخه، لخوض المعركة. منذ زمن طويل وهو مقتنع أنّ قبيلة دجيمْبَا لا تستطيع بمفردها مواجهة مملكة الجنوب، ينبغي بعث رسلٍ إلى مراكز جميع الأسواق الصديقة، لتتجمّع الخانات جميعها في تحالفٍ وتحارب تقدُّم جيوش الجنوب. يعلَم بأن عليه العمل على هذه الغاية منذ الآن، وأنّه سينذر حياته من أجل هذه الحرب. وعلى ضوء انتصاراته أو إخفاقاته سيَحكمُ الناس عليه. لم يبادر مومويه للانضمام إلى المحاربين في كوخِ عمّه، مصير آخر ينتظره. ثمّة اسم يناديه من بعيد، اسم يرسم التجهّم على ملامحه. يأخذ سيفه التاكوبا ويودّع القرية. ثمّة اسم يُهمَسُ لهُ من قبر جدّه، دون انقطاع، حيث يجلس الرجل العجوز مطأطئ الرأس، اسم كورا كومبا.

الحرب في أوجها الآن، وجيش سالْلميّه يتقدّم. دروبُ الصحراء مُشتَعلة، واشتباكات القبائل تتواصل بلا هوادة. استولى جيش سالْلميّه على بضعة خانات ويحاول قطع الطريق الرئيس الذي يتيح لآل دجيمْبَا التواصلَ مع حلفائهم. يعلمُ كانو أنّه لن ينتصرَ إلّا بمُضايقة أعدائه، فيغير هو ومحاربوه على رجال سالْلميّه في الليل، يقتلون حيواناتهم، ويدمّرون مؤنَ الماء ويختفون. هم يعرفون الصحراء، وما يُمثّل أتُوناً للغزاة هو لهم مكان انكفاء لالتقاط الأنفاس. يجري التنازع على جميع الطرق للسيطرة عليها،

وتُشاهدُ الجثثُ ممدَّدة في أماكن نائية، دلالة على هجمات مباغتة أو على كمائن، الحرب مُنتشرة في الأرجاء جميعها. وحدَهُ موموبه يسيرُ غير مكترثٍ بالمجموعاتِ المسلّحة التي يُصادفها، يسكنه هاجِسٌ واحد: أن يجدَ أخاهُ غير الشقيق، وللجحيم إن احترق العالم من حوله... في النهايةِ يعلمُ كورا كومبا أنَّ أخاه يجدُّ في إثره. تخبره العقاربُ بذلك، تخبرهُ الشجيرات والماء الذي يسيل تحت التراب: «موموبه يبحث عنكَ وهو يقترب...» فإذن، يختار أعلى الهضاب، جبل سيكيليه، ويوقدُ ناراً في قمّته لكي يُرى من أبعدِ مكان ممكن وينتَظرُ قدومَ عدوّه إليه.

يجيء اليوم الذي يتواجَهُ فيه الأخوان، متوتّرين بذات القدْر من الحقدِ. كلّ واحدٍ منهما يريدُ حصّته منَ الدم. ما يراه كورا كومبا في موموبه دجيمْبَا، هو الوجهُ المتغطرس لسارو الذي كلّمته عنه سالينا كثيراً. ويستشعرُ ثقتهُ بنفسه، ثقة المولودِ من سلالةِ أولياء العهد، يستشعر فيهِ عجرفةَ خايا والازدراء الذي تنطوي عليهِ العائلة بأكملها، ممّا يجعله يتحرّق غيظاً. أمّا موموبه دجيمْبَا فيرى بكورا كومبا، الابن المتوحش، المُخالفَ للطبيعة، الذي لم يولد من أب وإنّما من رحم امرأةٍ منفيّة. هو العارُ الذي لطّخ جسد سيسوكو العجوز. وكما لو أنَّ ذلك لا يكفي، فيتحدّاهُ كورا كومبا مُظهراً القلادة التي حولَ رقبته، ويفسّر له أنّه يحتفظ فيها بآخر فقرة من عظام جدّه. يتمنّى موموبه أن يمزّقه بيدين عاريتين لكنّه يعلم أنَّ النزال لا يجري على هذا النحو. فيجلسُ أمام النار ويريقُ الشراب قرباناً للأرض، ثمّ يخرجُ سيفه التاكوبا. ويفعلُ كورا كومبا الشيءَ ذاته. يتقابلان وجهاً لوجه، جذعاهما محزمان بالجلد وطلاء الحرب يغطي جسديهما بالرسوم. وعندما ينقضّان بعضهما على بعض أخيراً، يهتزّ جبل سيكيليه بارتطامٍ مكتوم، كأنّ صخرتين اصطدمتا للتوّ.

كلّ ضربةٍ مُسدّدة يجري تفاديها ببراعة، كلّ انقضاض يجري تحييده. كم يمكنُ أنْ يستَغرق نزالٌ بين اثنين؟ الساعاتُ تمضي ولا يتمكّن أيّ منهما

لمسَ الآخر. من شدّةِ بأسهما كلّ خطوةٍ ترفعُ غمامة غبار، كلّ هجمةٍ تجعل الأرض ترتعد، لا يضعفان، لا يفقدان رِباطة جأشهما. يتبارزان بالبأسِ ذاته، بالدهاء ذاته، وبالخفّة ذاتها. كم يمكنُ أنْ يستَغرق نزال بين اثنين؟ لا تكلّ الضربات ولا تتعب والساعات تُرهقُ بفائضِ الغلّ الذي يملؤها.

وفي النهاية، الشمسُ منْ يتنازل أوّلاً وينسحبُ مثل رجلٍ أضنَاه التعب. دونما حاجة للتحادث، يعلمُ كورا كومبا ومومويه دجيمْبَا أنّ وقت توقّف القتال قد حان. يتراجعانِ إلى الخلف بالخطوةِ ذاتها كي لا يتّهمَ أيٌّ منهما الآخر بالجبن، ويجلسان تفصلهما ثلاثون خطوة. لن يحدثَ نحر مُفاجئ أو غدر أو مباغتة. ما إنْ يوضَع سيفُ التاكوبا حتى يتوقف كلّ شيء. عندئذ يشرَبان ويستعيدان قواهما، كلاهما مُنذهل أنّه لم يحرز النصر بعد، ومُنبهت من إعجابهِ في ليلةِ القتال الأولى بقدْرِ الآخر وميّزات المُحارب التي يتّصف بها.

كم يمكنُ أنْ يستَغرق نزال بين اثنين؟ كلّ يوم ينهضانِ من جديد، يريقانِ شرابهما قرباناً وينقضّان بعضهما على بعض. كلّ يوم يتصارعان بكلّ ما لديهما من قوّة. لم ير أيّ منهما قبل هذا القدْرَ من البَأسِ الذي في ذراعِ خصمه. هما أخوان، وهذا الأمر لا ريب فيه، يريانه بأمّ عيونهما. يجيدان القتال بالفنّ ذاته. تارةً يُسقِطُ أحدهما الآخر فيتدَحرجُ على التراب -إلّا أنّه ينهضُ ثانية، وتارة أخرى يشق سيفٌ لحمَ الآخر لكنّه لا يتعدّى خدشاً طفيفاً. لا يتراجعان عنْ بعضهما، لا يوفران شيئاً من قوّتهما، يَلجآن إلى حيلهما جميعها، لكن لا شيء يولد بمضيّ الساعات سوى الاحترام المتبادل والفكرة، ربّما، أنّه حين يتواجهُ أخوان، فلن يؤدي ذلك إلّا إلى موتهما معاً بالطعنةِ ذاتها.

تمضي الأيّام ويواصلان توجيهَ الضربات، البحث عن نقطة ضعف، خداع الخصم بمراوغته أو بحركة مكبوحة أو بتتابعِ ضرباتٍ مُعقّد. تمضي الأيّام، الثاني، الثالث، الرابع. الغبار المثار على الأرض لا يهدأ أبداً. والطيور تقلعُ

عن حَومها فوق جبل سيكيليه، تظنّ أنّ غمامة الغبار عاصفة رمال. تمضي الأيام، السادس، السابع، التعاقب ذاته للجهد والعرق واللوذ بالصمت عندَ هبوطِ الليل. لا وجودَ لشيء سوى النزال. الضباع المنجذبة على وعد جسَد مُندحر قريباً ينتهي بها الأمر إلى الاقتراب. تنتظمُ على شكل نصف دائرة، منتظرة اللحظة التي سيسقط فيها أحد منهما أرضاً، أو ربّما، ببساطة، الفضولُ منْ جلبها لرؤية من سينتصر. غير أنَّ الأيّام تمضي والضّباعُ ذاتها سئمت، وقد تملّكها شعور أنَّ أيّاً من الرجلين لن يُسقط الآخر، وفي النهايةِ ترحل.

في يومِ القتال التاسع يختفي جبل سيكيليه، إذ يُدكّ التراب من فرطِ ما يطرق الأخوان؛ غار في الأرض مُنهكاً من ضربات الأقدام، من كل تلك الهجمات وحركات التفادي والوثبات. لا يزالان يتقاتلان، نحل الجسدان والملامحُ باقية على توترها. كلّ يوم، يعودَان للقتال، وكلّ يوم هناك أخ يُحيّد هجمات أخيه. في اليوم التاسع، ينتهي النزال، إذْ تقرّر الريح نيابةً عن الرجلين. في هجمةِ كورا كومبا للمرّة المئة، للمرّة الألف، التي لا تختلفُ قوّتها عن قوّة الهجمات السابقة ولا هي أكثر تسديداً، إلّا أنّه في اللحظةِ التي أرادَ فيها مومويه دجيمْبَا صدّها، ترفع الريحُ الرملَ مشوّشةً رؤيته. يَصدُّ ابن سارو بحركةٍ دفاعيّة خاطئة، تاركاً مكاناً واسعاً بين سيفه وفخذيه فينغرزُ نصل كُورا كومبا باللحم دونَ جهدٍ ويشقّ بطنه، ممّا يضعُ مومويه في حالةِ ذهول، لا يشعر بالألم مباشرة -مجرّد وهن هائل-، كأنّ كلّ شيءٍ ينسلُّ خارجه. وكورا كومبا، مُدركاً أنّه لولا الريح التي هبّت للتوّ، لتفادى مومويه ضربته، مُدركاً أنّ انتصاره ليس سوى ثمرة مصادفة غريبة، يلبثُ كورا كومبا بلا صوت، بلا بهجة، كأنّ فوزه أشعره بالعار، وعندما يجثو مومويه واضعاً ركبة على الأرض، بدلَ أن يقصلَ رأسه كما أقسم على نفسه أنْ يفعلَ طوال تسعة أيّام مرّت من القتال، ينحني إلى جواره ويسنده. عندئذ، يتعانق الأخوان، للمرّة الأولى، ويتحادثان. يطلبُ كورا كومبا من مومويه دجيمْبَا ألّا يموت، يقولُ له إنّه لم يشهد قطّ نزالاً مثل نزالهما، وإنّه إذا مات فلأنّ الريح قرّرت قتلَه، وإلّا من أين يأتي هذا العار الذي يغمره، هذا الشعور أنّه انتصرَ دونَ

أنْ يتغلّبَ عليه؟ ويجيبه مومويه أنّه يموت ويعلَمُ أنَّ الريحَ قتلته، وأنّه ليسَ غاضباً من هزيمته أمام كورا -إذْ رأى جسارته-، وإنّما بسببِ توقّفِ النزال. يجيبهُ ليقولَ إنّ كورا هو أخ، وإنّه شعرَ بذلك مع كلّ ضربةٍ مسدّدة، مع كلّ ضربة مُتفاداة، يقول تلكَ الكلمة، ينطقها، «أخ»، يقولُ حتّى إنّه سيموتُ وهذه الكلمة على شفتيه.

وكورا يتلقّفُ هذه الكلمة، أحسّ بها هو أيضاً، ما إنْ انقضّا بعضهما على بعض. في عروقهما يجري الدم ذاته، لهما القدْرُ ذاته، همّتهما لا تفتر ولا شيء ينالُ من شموخهما، «أخوان» وهذه الكلمة هي التي تدفعهُ لأن يركعَ ويضمَّ بحبّ الجسدَ الذي قتلَه.

يدفنُ أخاه لليومِ الأخير. يُمدّد جثة مومويه بعناية ويضَع سيفه التاكوبا على صدرهِ ثمّ يبدأ بإهالةِ الترابِ عليه. ولمدّة تسعةِ أيّام، المدّة نفسها التي استغرقها القتال، يُعيدُ وضعَ الرمل والصخور ليبني قبراً لأخيه. لا يوفّر جهداً، وهو يكدّ من مطلع الشمس إلى مغربها. كورا كومبا وحده وسطَ الحجارة. يلهثُ في تلك البقعة النائية، مُتعرّقاً، ناقلاً كتلاً صخريّة ليس بوسْع أحدٍ سواه تحريكها. وفي نهايةِ اليوم التاسع، يظهرُ جبل سيكيليه من جديد، إلّا أنّه لم يعد جبلاً، بل ضريحاً، تقدِمَةُ كورا كومبا إلى مومويه دجيمْبَا.

عندما ترى سالينا ابنها عائداً في ضياءِ المساء، تتعرّف على هيئته مباشرة، على بنيتهِ الهائلة والرائعة. ترى أنّه لا عرجَ في مشيته ولا جرح بادياً عليه، فتعلَم أنَّه انتَصر. إذا هو عائد إليها، فهذا يعني أنَّ رجال عشيرة دجيمْبَا قد نالوا ما يستَحقون. ولكن لا تشعر بأيّ بهجة. كلّما اقتربَ أحسّت أنَّ اليومَ ليسَ يوم عيد. يصلُ إليها كورا كومبا ويشرب الماء الذي تقدّمه له، لا يمانع بأن تفكّ لهُ السُيور الجلديّة التي لم ينزعها منذ أيّام، وحينَ يهبط الليل وتحوطهما برودة الطقس، يَشرعُ بالتكلّم. يحكي لها عن النزال، عن الضربات الأولى، والحقد الأعمى الذي هيمنَ على كلّ شيء. يُبلغها

أنَّ كلّ ضربة كانت تكفي لتفُجّ سوراً. يحكي لها عن دهشته برؤية مومويه صامداً أمامه ثابتَ الجأش لا يتزعزع ويحيّدُ جميعَ هجماته، وحتّى يضعهُ في مأزق. يستَرسلُ في الكلامِ عن مومويه ويصفُ كَمْ كانَ رشيقاً وكم كانت عيناه مُتّقدتين. تُنصتُ سالينا ملتزمةً الصمت إذ تعلمُ ما الذي سيقوله لها. سيقول بمضيّ الأيّام أحسّا، شيئاً فشيئاً، أنّهما أخوان. هذا الشعور أربكهما في البداية، وحاول كل منهما إخفاءه في أعمق قرارة نفسه، كتمه والاستغراق الكامل بالكراهيّة، مقتنعين أنّ منها فقط يأتي النصر. «أخ»، يكرّر هذه الكلمة مثل طفل، بدهشة، وسالينا تصرّ على أسنانها لأنّ معنى ما يقوله أنّه كان لديها ابن، مومويه. بودّها لو تطلبُ منه أن يصمت ليترك السماء تلتحفهما بصمتها ولكن لا تستطيع، تعلَم أنّه من الضَروريّ أنْ يتكلَّم كورا كومبا حتّى النهاية. يحكي لها أيضاً عن الأيّام التسعة التي أشاد فيها ضريح جبل سيكيليه. يفسّر لأمّه أنّه كان في حاجة ليُنهكَ جسده في الكدّ وإلّا لكان اقتلعَ عينيه من الألم. لم يشعر يوماً بخواء مُفرطِ الفداحةِ كهذا. وعندما يفرغ من سَرده أخيراً، وبنبرةِ صوتٍ واضحة، ملؤها السكينة، يقول لسالينا ما كانت تخشى سماعه: أنَّ مع موت مومويه كلّ شيء ينتهي. تلك الكلمة «أخ»، التي قبلها، تلك الكلمة تأخذُهُ بدوره، تقلبه رأساً على عقب، وتحكم عليه بالعزلة، تَصرعهُ. ولا بأس بهذا، يقولُ: «سنموتُ بالطعنةِ ذاتها»، ويضيف أنّه كان من الأكثر إنصافاً أن يموتَ في اليوم نفسه، تاركاً دماءهما تمتزج، وأنّه يدرك اليوم أنّ هذا التأخير لم يكن مدّة ليعيش انتصاره، بل مهلةً لأداء واجبه، إذ أتاحت له أنْ يهبَ أخاه ضريحاً. يَصمتُ كورا كومبا. ثمّ على مهل، يقترب من أمّه، ويلقي بنفسهِ في حضنها، محارب ضخم مكوّر الجسد بين ذراعي أمّ. ما عادَ وجهاهما متقابلين، إذ كلاهما ينظر إلى النجوم. صوت كورا كومبا فقط يوحدهما. يتكلّم وهي تدرك أنّ كلّ شيء سينتهي، ولن يكونَ بوسْعها رفض ما يطلبه، وهو يشعر بذلك فيطلبُ ما جاءَ لأجله. ما زالت تشدُّ بقوّةٍ على جسدِ ولدها. «أطلبُ منكِ أن تُعيديني إليكِ، سالينا»، قال كورا كومبا، الابنُ –الغضبُ، وسالينا تَعضّ على شفتيها، «فلتكن هذه الليلة الأخيرة. أنتِ وحدكِ تستطيعينَ وضعَ نهايةٍ لحياتي. ما من محارب يستطيع قتلي،

أبداً، وأنتِ تعلمين ذلك. أطلبُ منكِ أنْ تُعيديني إليكِ» وهي تعلمُ أنّه لا جدوى منْ رفضها، فتفعل ذلك، تَشدُّه إليها بقوّة أكثر فأكثر. يشعرُ بعناقها، يعلَم أنّها قويّة، ولسوفَ تمضي حتّى النهاية، يتبسّم ويَزيدُ بعضَ الكلمات، ليُعينها، ليُعطيها بعضاً منْ صَوته لبرهة إضافيّة، «أنا لم أكن يوماً سوى الابن –الثأر، سالينا، وقد أتممتُ كلّ شيء». بودّها لو تبكي لكنّها لا تفعل ذلك، تصغي بعدُ إلى صوته الذي يمنحها الشجاعة، «ستدفنينني تحت هذا الكثيب وسأشعر دائماً بالتدحرج اللطيف للرمل. الكثبان تتقدّم مثل السفن التي تبحرُ مُتباطِئة، تعلمين، وسوفَ تحملني معها...»، يقولُ لها: «شدّي يا أمّي» وهي تفعل ذلك، «شدّي لتزيحي حُزني» وهي تَشدُّ بقوّة، متوترةً مثل جذعِ شجرةٍ قديم. يختنقُ لكنّه لا يُقاوم. تتشبّث فيه بكلّ قواها، بذراعيها، بساقيها، تشدّ لأنَّ هذا مَطلبه، تشدّ إلى النهاية... تستَعيدُ الابنَ –الغضب بكامله، تشدّ عليه لتشعرَ بأنفاسه الأخيرة، تشدّ عليه إلى اللحظة التي يتصلّب فيها جسده بغتةً، ثمّ يرتخي في اللحظة التي تليها، ثمّة شيء تبخّر، تَشعرُ بذلك، انتهى الأمر، ولا يبقى سوى شساعة السماء وصرختها التي تطلقُ لها العنان أخيراً.

- VIII -

الفقرة الأخيرة

يصمتُ مالاكا. هدّه الإنهاك، هناك أمر فيما قاله للتوّ قلبَ كيانه. طوال حياته وهو يعلَم بوجود كورا كومبا وظروفِ موته -سالينا نفسها أخبرته- غير أنَّ اضطراره لرواية ذلك المشهدِ وضعه في حالةِ خبل. شعرَ بالتوتر الذي أصابَ ساقي سالينا، بانقباضِها، بحالتها وهي تشدّ، على حين يفزعها الشدّ، تشدّ وهي راغبة لو تتوقّف عن ذلك، تشدُّ كمُحاربٍ وتبكي كما تبكي الأمّهات. يَرمقهُ دارزغار برصانة، ويقدّمُ له ببطءٍ كوب ماء.

«لست مضطرّاً على أنْ تُكملَ مباشرة... أمامنا الليل كلّه.»

ليروّح مالاكا عن نفسهِ، يسألُ المُعدِّي العجوز عن عددِ الجثامين التي أوصلها إلى المقبرة.

«أنتَ الأوّل»، يجيبُ الرجل المسنُّ.

ذلكَ يُفاجئ مالاكا. كانَ يظنُّ أنّ المُعدّي قد أفنى عمره في هذا العمل. يفسّر لَه دارزغار أنّ كلّ مُعَدّ ينقلُ جثماناً واحداً فقط. هكذا كانَ الأمر على الدوام، إذ يقتَضي الجلوس في الساحةِ الكبيرة والانتظار، وقد يستغرقُ قدوم الجثمان بضع ساعات أحياناً، أو بضعة أشهر، أو بضعة أعوام. لا أحد يعلم. ولكن كلّ معدّ يفعل ذلك مرّة واحدة فقط. هم رجالٌ بلا عوائل، بلغوا من العمر عِتيّاً. وعندما يختارون أن يصيروا مُعدّين يكونون على دراية أنّهم سيتفرّغونَ بالكامل لانتظارِ القادمين من بعيد.

«كم من الوقت انتظرت أنت؟ سأل عندها مالاكا.

- عامين»، يُجيبُ دارزغار. دونَ أنْ تشي ملامحه بأيّ انفعال، إلى

حدّ يعجز معه مالاكا أن يَبتَّ إنْ كان المُعدّي مُتحسّراً على تأخّره طوالَ هذه المدّة أم على العكس كانَ يُفضّل لو تُركَ لهُ وقت أطول. فإذن، يَسألُ الشابُّ:

«لماذا لا تأخذون أموات مدينتكم إلى المقبرة؟»

بدا أنَّ السؤال قد فاجأ دارزغار.

«أمواتنا تعودُ إلى النهر، هكذا الأمرُ مُنذ الأزل؛ تَطفو على السطح، تتحلّل، وتغذّي دورة المياه الأبديّة. أُشيدت المقبرة من أجل الغرباء فقط، فالمدينةُ مُنذ أنْ غدَت مدينة، وهي ظمأى للحكايات.»

عندئذ، يشعرُ مالاكا أنّه باتَ مُستعداً للمتابعة. المدينة ظمأى، والآذان والعيون والأفواه المحيطة بهِ حاضرة هنا للإصغاء، وعليه أنْ يمنحها الحكاية التي حملها معه من مكانٍ قصيّ.

بصبر، بأناة أرملة، بحثَت خايا. لم تترك زاوية في الصحراء إلّا وفتّشت فيها. لا شيءَ يغلبُ عنادها. بحثت عن الآثار، وراقبت الأغصان المكسّرة، رفعت الأحجار، وسبرت الآبار، مُتشمّمة مثل كلبةٍ رائحة رجلها، وفي النهاية وجدت ما تريد. بصبر، عثرت على الفقرات الأربع والعشرين لزوجها المنزوعِ العِظام. لكنّها تعلمُ أنّ الفقرة الأخيرة لن تعثر عليها، أنَّ الأخيرة ينبغي الذهابُ لطلبها. فتفعل ذلك، تُنحي كبرياء الملكةِ جانباً وتذهبُ إلى سالينا. وعندما تجدها، في واحدٍ من مآويها الصحراوية حيثُ تُقيم سالينا محاطةً بأغصانٍ جافّة وحصى، تركعُ مباشرة لتُظهرَ لسالينا أنّها تغيّرت. «حانَ أوان الصفح»، تقول، «ألا تشعرين بذلك، سالينا؟ لم يتبقَّ أمامي زمن طويل لأعيش ولكن لا يزال هناك ما أنتظره قبل أن أموت، سالينا: فقرة سيسوكو الأخيرة. إذا أعطيتها لي، سأرجعُ وأطلب من كانو ورجاله أنْ ينبشوا كرسيَّ سيسوكو الذهبيّ، فأمدّد زوجي على التراب أخيراً، وأعطيهِ فقرته وأتمدّد إلى جواره. لن أعيش يوماً إضافياً بعدها. أترين سالينا، كلّ شيءٍ ينتهي. لقد أتيت أطلبُ منكِ الفقرةَ الأخيرة، وإذا أعطيتها لي، تَكونين أنتِ الرابحة بما

أنّني، وأعدكِ بذلك، لن أعيشَ بعدها.» غير أنَّ سالينا، مُذ نطقتِ العجوز خايا اسم كانو، ارتعشَ وجهها وما عادت تُصغي. عادت وغرقت ثانية في ألعاب طفولةِ الزمن الذي ولّى، عادت ورأت الوجه المبتسم للشاب الذي مُنعَ عنها. عندئذ، وحين تفرغُ العجوزُ من كلامها، وهي لا تزال راكعة، وتلفظُ الجملةَ الأخيرة على شكل توسّل: «اقبلي، سالينا، ودعينا نعيش كلّ واحدة في دموعها»، تُجيبها سالينا بالرفض، غير متأثرة بالملكة الراكعة، ولا تشير لها بيدها أن تنهض، وتصفعها بكلّ كلمة تلفظها. «سلبتِ منّي كلّ شيء، خايا. ليسَ حبّي فقط، وإنّما حياة بأكملها. حكمت عليَّ بالصحراء. ما الذي بقي لي ولماذا يحقُّ لكما أن تتمدّدا في الأبديّة، أنتِ وسيسوكو، مُبتسمين، على حين أظلّ أنا ملعونة؟ تذكّري ذاك اليوم الذي أتيتُ فيه لرؤيتك والتوسّل إليك بأن تزوّجيني كانو بدل سارو، تذكّري غطرستك، كنت تقولين: «سأضربكِ بيديّ وأطرحك أرضاً». في ذلك اليوم بالذات ولدَ حقدي خايا. هو منْ يُجيبك اليوم لأنّك من فرط ما جعلتهِ عميقاً لم يغادرني طوال حياتي. ذلك اليوم البعيد الذي قلت فيه لا، هو مَن يجيبك خايا. لرجلك القلق، بما أنّه ليس لديّ شيء، ولكِ أنت الطعمُ المرّ للبحثِ الناقص. ستكونان أعرجين إلى الأبد، ولن أتنازل عن شيء، خايا، ستظلُّ الفقرة الأخيرة ناقصة، دوماً، ما دامَ كانو ليسَ لي.»

في اللحظةِ التي يفرغُ فيها مالاكا من نقلِ كلمات سالينا، يتجمّد. إذ تلوحُ له في البعيد، لأوّل مرّة مُنذ أن غادروا، الجزيرة المقبرة. يبزغ النهار شديدَ الشحوب ملقياً على وجهِ الماء ضياء جديداً. الجزيرة المقبرة بحجم قرية يحيطُ بها سور أبيض عال. كبُرَ أسطول القوارب حوله مجدّداً. لا بدّ أنَّ الزوارق بلغَت أكثر من مئة. بودّهِ لو يسأل إنْ كانَ الحالُ هكذا دوماً؛ عندما يحضرُ رجل فقيدَهُ إلى المقبرة، يرافقه هذا القدْر من الصيّادين في الرحلة، مُعطّلين كلّ مشاغل حياتهم، ومُكتفين طوال مدّة العبور على تلك الوجبات التي يتبادلونها والحكايات التي يتداولونها كلّ ليلة، لكنّه لا يجرؤ. يكتفي بمراقبة الأعدادِ الغفيرة المُحيطة به. يخطرُ في ذهنه أنّهم يواكبونَ سالينا،

وهذا يؤثّر فيه، فهي لم ترَ في حياتها شيئاً مماثلاً: كأنّه سوق بحريّ واسع يترنّح على مهل.

وإذ باضطرابٍ شديد يجتذِبُ انتباهه، يبدو أنَّ ثمّة إخلاء لأحدِ الزوارق من ركّابه. يمرّرُ الكبارُ الأمتعةَ إلى مركبٍ آخر، كما يجري نقلُ الأطفال. يلحَظُ دارزغار العجوز فضولَ مالاكا فيفسّر له.

«يُجهزونَ قاربَ الميتة.»

تنازلَت عائلةُ أحد الصيّادين عن قاربها. هكذا يجري الأمر دوماً. في لحظةٍ ما منْ رحلةِ العبور، تُقنعُ الحكايات عن حياةِ الميتِ عائلةً بأن تهبَ قاربها. دونَ هذا الوهبِ بالذات، يتوقّف كلّ شيء وعلى المرافقِ أنْ يصرفَ النظر، لأنه لا يحقّ لأحدٍ دخول المقبرة إذا لم يمنحه أحد الأحياء قاربه. الأمر الذي يعدّ بمنزلة شرفٍ للصيّادين الواهبين. وإذا دخل الميت المقبرة، يُهنَّؤونَ، ويُعامَلونَ بتقدير، ويحظون بمكانةٍ مرمُوقةٍ جرّاء فعلهم.

«في هذا المساء، يستأنفُ دارزغار، سنتقدّم قليلاً قبل أنْ يحينَ أوانُ المثولِ أمامَ الأبواب.»

انتهوا من إخلاء القارب وباتَ فارغاً. يكسو الصيادُ جدران الزورق بأعشابٍ مجفّفة يفوحُ منها عطر ثقيل، ثمّ ينقلُ، بمساعدَة رجال آخرين، جثّة سالينا بحرص. أُنجزَ كلّ شيءٍ وعادَ الهدوء مُجدّداً. يُمضي الرجال الساعاتِ الأخيرة من النهار في أخذِ قسطٍ من الراحة، وتناول الطعام وإنهاء قصّ ملحمة الميتةِ إلى الذين كانوا بعيدين فلم يسمعوا مُجرياتها.

«آن أوان التقدّم»، قال دارزغار عندما حلّ المساء.

يبدأ الأسطول بالتحرّك مع حفاظه على إبقاء زَورقي مالاكا وسالينا في المقدّمة. يُدركُ مالاكا أنّ بوسعهِ متابعة حكايته لكنّه لا يفعل ذلك، يتريث، إذ يرى للتوّ أضواءً تدهشُه. ففي البعيد، تتوهّج نيران حول الجزيرة التي تقتربُ ببطء. لا يستفسرُ عن شيء. يعلم أنَّ لا أحدَ يعيش هناك. لقد أشعلت المقبرة سورها من تلقاء نفسها والمشهد مُذهل: جزيرة بمنزلة حصن تُحيط به النيران التي تتلألأ على المياه مُنتظرةً الرجالَ المقبلينَ نحوها. عندها فقط يستأنفُ مالاكا سرده.

«أنا، مالاكا، أتيتُ من مكانٍ مُفرط البعد لأحضر لكم أمّي، عليَّ الآن أنْ أتكلّم عن الزمن الذي يمضي ولا نفعَ منه، عن ساعاتِ التبطّلِ والتيه. ما عادَت سالينا تعني شيئاً لأحد. منذ ذلك النهار بدأت تكلّم الحجارة وتخاطب الأفاعي. مُنذ ذلك النهار بدأ خسوف ذهنها الذي يجعلها، أحياناً، تلعن النجوم. «الزمن يمضي.» هذهِ الجملة القصيرة لفظاً هي محنة مُفجِعة لمن يعيشها في العزلة. في منأى عن البشر يُضنيها سعيها للبقاء على قيد الحياة، مؤجّجة نارَ ثأرها إذ هو الشيء الوحيد الباقي لديها. الزمن يمضي، أجل، حياة كاملة تقريباً. تتشابهُ الأيّام في عزلة الصحراء، وسالينا هائمة بين الكثبان مُستسلمة للصمت. لقد تغيّرت؛ نحل جسدها، وألفت القيظ، تعلّمت إيقاع الصحراء وما عادت حياتها تمضي أبعدَ من قطرات الندى التي تجنيها عن الحجارة، من الساعات البيضاء لمنتصف النهار، من برودة المساء، والمملكة الهائلة للنجوم. لا تتكلّم إلّا مع نفسها، وأحياناً تصارع الحيوانات التي تُزاحمها على لُقمتها. الزمن يمضي لكن بالنسبة لها، كلّ شيء متشابه.»

ثمّ يأتي ذلك اليوم الذي ستُسميهِ لزمنٍ طويل «يوم المبعوث». في أحد المساءات، عند الساعة التي تخفّ فيها وطأة القيظ، تصلُ إحدى الآبار. هي تعرفها جميعها، وتعرف مواسم امتلائها وجفافها. تتقدّم وتكتشفُ متفاجئة راية مغروزة عند البئر عليها كتابة. تتريث قبل أن تقرّر الاقتراب فقد مضى زمن طويل لم ترَ فيه إنساناً إلى حدّ يجعلها تشكّ بقدرتها على النطق. تتقدّم بحذر فتجدُ محارباً فتيّاً يستند إلى البئر، وقد استرقته إغفاءة. ما إن يسمع خطواتها تقتربُ حتّى يقفز على قدميه.

«ما هذا؟» تسألُ وهي تُشير إلى الراية.

ينظر إليها منذهلاً ومتفاجئاً، على الأرجح بسبب ظهور أحدٍ بغتةً في مكان كهذا. تستَشعرُ خوفه. مُسلّح، ويحمل العلامات التي تميّز قبيلة دجيمْبَا، غير أنّه شديد الفتوّة ليشهدَ الزمن الذي كانت فيه بينهم. عندئذ تخرجُ من حقائبها المتدلية عن كتفها قليلاً من اللحم الذي جفّفته على حجارة الصحراء وتقدّمه له، فيقبل ويأنس.

«أنا واحد من المبعوثين السبعة»، يقولها كأنَّ الأمرَ بديهيّ.

يُلاحِظُ أنّها لا تَعرف عمّا يتكلّم، فيفسّر: مُنذ أشهر وهو يذرع أراضي الشمال. لقد حدّد كانو لكلّ مبعوثٍ منطقة وتسع رايات. ورحلَ الجميعُ مكلّفينَ بالمهمّة ذاتها، وهي نَصبُ الرايات التسع لإعلان الخبر، وبعدَ إنجازها فقط بوسْعهم العودة إلى المملكة.

«أيّ خبر؟ تسألُ سالينا.

- لا تعلمين؟

- أنا أعيش بين الكثبان وهي لم تخبرني بشيء.

- الملك كانو في أوجِ سعادته...

- الملك كانو...؟»

ينظرُ إليها باستغراب، متفاجئاً بهذا القدْرِ من الجهل.

«كانو، أجل. ابن سيسوكو. أصبح هو زعيم قبيلة دجيمْبَا بعدَ موتِ أبيه.

- لماذا تقولُ إنّه في أوجِ سعادته؟ تسألُ.

- لأنّه رزق بصبيّ.»

تشحب، تتمنى أنْ تتكلّمَ ولكن ما عاد بوسعها أنْ تنبسَ بحرف. ويستأنف المبعوث: «ابناً. أجل. وقد مرَّ عليهِ زمن طويل الآن، وهذا ما أنا موكل بإعلانه.»

يفسّر أنّه هو والمبعوثون الآخرون الستّة رحلوا يوم مولد الطفل. وكل واحد لديهِ مهمّة ذَرع المنطقةِ المكلّف بها ليعلن الخبر في الأرجاء عبر نصبِ الرايات عند التخومِ الأخيرة للمملكة، في الأماكن الأكثر وعورة ليعلمَ الناسُ هناك والمسافرون والتجّار وحتّى الأقوام النائية بأنه باتَ لكانو ابن. إلّا أنّه ضلّ طريقه ولا يعلمُ كيفَ حصل ذلك، تاه بعد أنْ غادرَ قرية بعيدة صوب الجنوبِ. ما عاد يعلم أين هو ولا كَمْ مضى عليه نائياً عن العالم. نصبَ الراية الأخيرة عند البئر، وبلغ به الحدّ أن أحسّ أنّها قد تغدو قبره لشدّة ما شعرَ أنّه بعيد عن كلّ شيء. ولكنّ سالينا حاضرة، وسيكون بوسْعها مساعدته...

تُومئ برأسها بالإيجاب. أجل، هي تعرف دروبَ القرى. يتبسّم. سيستطيع العودة منْ حيث أتى... ربّما أثناء مدّة غيابه أصبح لدى كانو أبناء آخرون، لا شيءَ مستحيل... لكنّه على الأقلّ أدّى مهمّته.

فتتجرّأ عندها على طرحِ السؤال الذي يحرقها، صارّة الأسنان، محاولةً عدم إظهار انفعالها: «ومنْ هي عروسه؟»

يُجيبُ المبعوث على الفور، مسروراً بإضافة تفاصيل إلى حكايته: «إنّها أليكا، ابنة سالْلميّه.»

حين أخذت الحرب تدور في حلقةٍ مفْرغةٍ عرض كانو هذا الاتفاق بين القبيلتين. فقد احتلّ سالْلميّه الأسواق الأكثر أهميّة غير أنّ آل دجيمْبَا، المتحالفينَ مع عشائر أخرى من الصحراء، راحوا يشنّونَ غاراتٍ تمنعهُ من التجوّل بأمان فوقَ الأراضي التي غزاها. أنهكت تلك المعارك الطرفين فما عاد بوسعِ أيّ منهما حسمها لمصلحته. عندئذ عرضَ كانو التحالف وأثنت الأطراف جميعها على حكمتهِ السياسيّة. وقد أبرمت اتفاقات تجاريّة، وانسحبَ رجال سالْلميّه وقد باتوا شركاء بالضرائب المفروضة على تجارة الخانات، وبأموال التوابل والمواشي.

تُصغي سالينا، وقد انعقدَ لسانها. ما الذي يمكنُ أنْ تقوله؟ الكلمات لا تُجدي، الكلمات التي تمزّق روحها وتحرقُ شفتيها. ألهذا الحدّ انقضى الزمنُ إذاً؟ ثمّة حياة أخرى لكانو؛ حياة عاهل، حياة قتال ومواثيق وحسابات سياسيّة واتفاقات تجاريّة. وهي، ماذا فعلت؟ تاهت متنقلةً من كثيبٍ إلى آخر...

حينَ يفرغُ المبعوثُ من حكايته، تنهضُ وتبتعد دون حتّى أنْ تحيّي الرجل الذي تخلّفهُ وراءها.

«إلى أينَ تذهبين؟ يسألُ متفاجئاً من رؤيتها تغوصُ على هذا النحو في صحراء لا يعيشُ فيها غير الجِعلان وانعكاسات الشمس.

– إلى مكانٍ لم يصلهُ بعد الخبرُ الذي تحمله»، تجيبهُ.

تُشير له إلى الجنوب تماماً، جهةِ القرى، ثمّ تسلكُ الاتّجاه المعاكس

وتبتَعدُ، مخلّفة المبعوث وكلّ ما قاله وراء ظهرها. تذهبُ إلى أوّل كثيبٍ تُصادفهُ وتجلسُ على قمّته. من هناك ترى كلّ شيء: البئر، الراية التي تخفق، والرجل الذي يلمّ حوائجه ببطء، ثمّ يمتطي دابته مُبتعداً. لا تحيدُ عنه ببصرها. إنّه يرحل، يعودُ من حيث أتى، غير أنَّ الراية تبقى في المكان حيث غرزت ومعها الكلمات التي قيلت.

- IX -

المنفى الأخير

وحدها، وسط الكثبان، تقرُّ بهزيمتها. تبقى يومين لابثةً في مكانها، مكرّرة لنفسها الخبر دون كلل، محاولةً أنْ تقدّرَ الخيارات التي أمامها. ثمّ تنهضُ في اليوم الثالث، وتمرّ ثانية من أمام البئر مُتّخذةً الدربَ الذي سلكه المبعوثُ عندما رحل. تشعرُ أنَّ عندَ البشر يجب أن يُحسم كلّ شيء، أو ربّما دافعها رؤية كانو من جديد، أو رؤية وجه تلك المرأة التي تقاسمهُ فراشه. تتقدّم نحوَ أراضي آل دجيمْبَا، ناحلة الوجه، عنيدة وتترنح في آن معاً، كي يُحسمَ كلّ شيء.

حين تصلُ القرية، بعد أسابيعَ من السير، تُحسّ كأنّها لم ترحل يوماً إذ كلّ شيءٍ على حاله. تعودُ وتلاقي منعطفات الدروب، الأكواخ، التلال، وأوائل المناطق المأهولة. لا تستوعبُ أنّ أحداً لا يتعرّف عليها إذ لا تدرك أنَّ الذين تصادفهم، الأولاد، والفتيات المائلات على ماء السيل، هم على الأغلب لم يشاهدوها قطّ لحداثةِ سنّهم. بالنسبة لها، لم يتغيّر شيء لأنّها تتقدّم في ماضيها، ولكن ينظرُ إليها الناس بتعجّب، فليسَ مألوفاً قدوم غريبة. يوقفُ الرجال أشغالهم، وتعلّقُ النساء أحاديثهنَّ. تُواصل سيرها غير مدركة أنَّ مظهرها لم يعد يمتّ للمرأة بصلة فبشرتها يبسَت تحتَ شمسِ الصحراء، وبات لها هيئة ناسك. تكلّم نفسها بصوت مكتوم، وتومئ برأسها أحياناً محيّية شجرةً أو صخرة. تتقدَّم نحو مركز القرية دونَ أن تلاحظ أنّه توسّع، وأنّ ترفاً مُحدَثاً يكسو واجهاتها، دونَ أن تلاحظ أنّ الناس الذين تصادفهم أصبحوا يرافقونها، وقد تملّكهم حدْس أنّها جالبة عواصِف معها.

وفي النهاية لفظ اسمها «سالينا!»، تعرّفت عليها امرأة تكبر الآخرين سنّاً. وعندئذ يتبدّل كلّ شيء. والذين كانوا مجرّد فضوليّين ينقلبون عدائيّين. جميعهم سمعوا بها. لقد كان الصغار يُهدْهَدونَ بقصص أولئك المحاربين البعيدين، كورا كومبا وموموبه دجيمْبَا، بقدومِ الضباع ونفي خايا لها... قيل لهم إنّ سالينا اسم الشؤم، إنّ سالينا هو الاسم الذي نزل على القرية بضراوة سرب من الجراد. أخبروهم مُنذ نعومةِ أظْفارهِم أنَّ سالينا ليسَ اسماً للفظ بل للبصق. فإذن، هذا ما يفعلونه: يبصقون، مُندفعين في إثرها، يَصيحون مُهدّدينَ وراء ظهرها. إلى اللحظة، لم يجرؤ أحد على ضربها إذ يخشونها. وهي تواصِلُ تقدّمها بصبر. لا يفاجئها الغضب من حولها ولا يجعلها ترتجف. هذا ما أتت تبحثُ عنه: قِصاص الحشود. هي مهزومة وتعلمُ أن ليس للمهزومين سوى تَلقّي الضربات. كلّما تضخَّمت الحشود ازدَادت هياجاً وشراسةً، منتشيةً، لا بدَّ، جرّاء وفرةِ أعدَادها. يهزؤون بها ويدفعونها من ظهرها أحياناً، يطوّقونها بقربٍ مُفرط إلى حدّ تحسّ معهُ ببهجةِ أذاهم. تشدّها نساء من شعرها، لا تقاوم، وحينَ يعرقلونها فتقع تنهضُ بصبرٍ من جديد. ثمّ أخيراً، يمسكونها، يطوقونها بأيديهم ويحملونها إلى مدخل القرية. هناك، وبالجبن الذي تتّصِفُ فيه الجموع الكبيرة، يهنّئونَ أنفسهم متبجّحين. ثمّ تخطر فكرة لأحدهم، الأكثر جبناً على الأرجح، بربطها إلى وتد، يقول: مثل عنزة، ممّا يُضحكُ الجميعَ حولها.

لفّوا سلسلةً حول عنقها وثبّتوها إلى عمود وتركوها هناك، عند مدخل القرية. بوسْعِ أيّ واحدٍ أن يمرّ ويتحدّاها، يشتمها، يلقي بقشور الفاكهة على وجهها، يبصق على اسمها أو يزعجها حينَ تغفو بجلدِ ساقيها بأغصانٍ شائِكة. بوسْعِ أيّ واحدٍ أن يضحكَ وهو يشعر أنّه يهزم الأساطير القديمة. لا تتحرّك، تنتظر الموت بهدوء، وأحياناً تدور كما كان سيفعل حصان عجوز مرهق راسماً على الأرض دائرة من الغبار تُجسّد خطّ حياتها تماماً.

ولاحقاً يأتي ذلك المساء، حيث تأتي امرأة إليها. لا تفعل كما فعل

الآخرون، لا تشتُم ولا ترميها بالحجارة لتوقظها مُجفلة. تقترب منها، وتتوقّف برصانة، تتأمّلها بصمت ولا ترحل، تلبث على هذا النحو بملامحَ هادئةٍ وجدّية. ترمقها سالينا من زاوية عينها، متذمّرة، مُتسائلةً عن قصدها، ثم في النهاية تصرخ في وجهها:

«شاهدت ما أردتِ مُشاهدته؟»

المرأة لا تجيب. تتقدّم خطوة إضافيّة، وعندها تدخل في الدائرة التي أصبحت مُنذ أيّام، ميدانَ عذابها.

«تريدين أنْ تُظهري لي أنّكِ لستِ خائفةً منّي، أليس كذلك؟ سألت سالينا وهي ترفَعُ رأسها.

تُجيب المرأة بصوتٍ هادئ:

– أبداً، أتيتُ أرى وجهك.

– حسناً، ها قد رأيتني، سيكون بوسعكِ أن تقولي للمحيطين بك إنّك جَرؤت على الاقترابِ من البهيمة... بوسْعكِ حتّى أنْ تقولي إنّكِ لم تخافي، وأنّك صعقتني بنظرتك أو بما تشائين...

– أنا أليكا، قالت الشابّة عندئذ، ابنة سالْلميّه وامرأة كانو.»

تتجمّد سالينا، وتنظر إليها مكترثةً. في تلك البرهةِ يتوقّفُ كلّ شيء فجأة. كادت تدير لها ظهرها غير أنّها لم تفعل ذلك. تبقى قبالة المرأة الفتيّة، ولأوّل مرّة، تتفرّسُ في ملامحها.

«أليكا...؟ كرّرت، زوجة كانو...؟»

لهنيهات، تنسدلُ غشاوة معتمة على وجهها. تنتصبُ واقفةً والشرُّ بادٍ على هيئتها، وتدنو جارّةً سلسالها وراءها. ترتدُّ أليكا للخلفِ ثمّ تتماسك مُحافظةً على استقامةِ قامتها.

«أتيتِ لتريني طريحة الأرضِ بلا حيلة؟ استأنفت سالينا، لتتأكّدي أنّ سالينا ما عادَت أكثر من بهيمة بين البهائم؟ أتيتِ ترين إن كان ما قيل لك صحيحاً بالفعل: أنَّ الصحراء أحالتني عجوزاً؟ أتيتِ تتلذّذين بانتصارك، أليس كذلك؟ حاذري، أليكا. إنْ بقي هناك شيء أجيدهُ ببراعة، فهو ذبحُ الشياه الصغيرة...»

وهي تنهي جملتها، تَثبُ سالينا على زائرتها. ترتدُّ الشابّة أليكا خوفاً فتتعثّر وتسقط إلى الخلف. عندها تضحكُ سالينا مع تكشيرةِ ازدراء.

«امضي، أليكا، امضي وأخبري زوجك الباسل أنّ التي أحبّها في الماضي ما عادت أكثر من ممسوسة تضحكُ وتصرخ. لن تجدي صعوبة في إقناعه، هذا أكثر ما هو مُتشوّق لسماعه. أخبريهِ أنّي أعيشُ بين النفايات والبصَقَات وأنّه حتى الأفاعي تفزع منّي. ولكن لا ينبغي لهذا أنْ يخدعكِ أليكا: أنا على هذه الحال لأنّ حياتي سُلبت منّي، وإن كان الدم قد سالَ فذلكَ لأنّ هناك إهانة وقعت. امضي، أليكا، إنّها قصص قديمة إنْ رويتها لك سيجافيك النوم. عودي إلى قصرك...»

تُصغي أليكا إلى صوتِ الشؤم هذا، المتهدّج، الأجش، المشرّع على عوالمِ الدم والغبار، وقبلَ أنْ تولي ظهرها لسالينا، تُجيبها ببساطة: «أنا أتيت كي لا يُقال إنّ أليكا لم تَسمع حتّى صوت سالينا.

– ليسَ صوتي ما ينبغي سماعه، تجيب سالينا، فقد جعلهُ البُغض قبيحاً، وإنّما قصّتي. غير أنّك لم تسمعيها، ولم تطلبي سماعها قطّ، فلو أنّكِ فعلتِ لرأيتُ ذلك، لرأيت الدم وقد سالَ من أذنيك منذ زمن طويل.» عندئذ، تفترق المرأتان، واحدة تعودُ إلى الليل وأخرى تَستأنفُ دورانها المتريث حول الوتد، بخطوات متثاقلة، مثل حيوانٍ غبيّ.

لا أحد يعلمُ ما الذي قالته أليكا لكانو عند عودتها. ما أخبرتهُ به عن اللقاءِ الذي أجرته للتوّ، لا أحد سمع به أبداً. هل أظهرت لهُ الشفقةَ التي اعترتها؟ أو اقتصرت على الرعبِ فقط؟ أم تكتّمت ولم تقل شيئاً خوفاً من إيقاظِ جروحٍ قديمة؟ لكن في اليوم الذي تلا يوم قدومها لرؤية سالينا، عندَ حلولِ المساء، بعدَ يومٍ طويل من الحرّ لعبَ فيه الأولاد مرّة أخرى بمضايقةِ ذلك الجسد العجوز –عبر إلقاء قشورِ الفاكهة، وضرب الساقين بالأغصان، والاستهزاء، وإمطار الشتائم–، في ذلك اليوم، الذي فيه كما في الأيّام السابقة أمضَت البغضاء أوقاتاً ممتعة، عند حلولِ المساء وعودةِ الهدوء، يأتي دور كانو في

المجيء. يتردَّد. وحين يغدو أمام الوتد، يتقدّم بضعَ خطوات أيضاً، يكادُ يلمسُ سالينا ثمّ يعْدِل عن رأيه. تنظرُ إليه، وتلبث جامدة، لا تقول شيئاً. تعرّفت عليهِ مباشرة رَغم الزمن والملامح الشائخة، بوسعها أنْ تنظر إليه ساعاتٍ طويلة على هذا النحو. «دعني أنظر إليك، كانو...» وهذه وسيلتها لتلتقي ثانيةً بالوجهِ الذي خسرته، لتغوص ثانيةً، لبرهة، في ذلكَ العالم البعيد حيث لم تكن الدماء قد نزفت منها بعد، حيث كانت ماماما لا على قيد الحياة، ذلك العالم الذي لا يشوبه تهديد حيث كان بوسعها أن تؤمن أنّ الحياة بأكملها ستَجري تحت بصر الرجل الذي قد اختارته. «دعني أنظر إليك، كانو...» تقيسُ الزمنَ الذي انقضى، وتكتشِفُ قسوة الهيئةِ التي لم تعهدها لديه، لحيتهُ التي تظهره مُسنّاً، وتلك الطريقة التي يقفُ بها والتي تُسبغها السلطة. إنّه في السنّ الممتلئ حيث يشعرُ الرجال أنّهم مُتحكّمون بحياتهم جرّاء الخياراتِ التي اتّخذوها... «دعني أنظر إليك، كانو...» هي تعلمُ أنَّ الحياةَ لا تكترثُ كثيراً بمشيئةِ البشر، وأنّها تُقرّر بدلاً عنهم، وتفرضُ مشيئتها، تزيحُ الدروبَ التي كانوا يرغبون في اكتشافها وتُوهنُ ما ظنّوا أنّه أبديّ. فجأةً، ترى في تلك البرهةِ الممتدّة، كيفَ كانا وكيف أصبحا وتعجزُ عن النطق، لأنَّ الكلمات شديدَة البعد. فيبادرُ هو وما إن يتلفَّظَ بأوّلِ كلمة تلومه في سرّها، لأنّه في العمق كان يُفضَّلُ أنْ يصمتا، هما الاثنين، مُستغرقين الوقت في تأمّل بعضهما للمرّة الأخيرة، لكنّهُ يتكلّم، أتى من أجل ذلك، والكلمات بالتأكيدِ ضئيلة:

«لماذا رجعت، سالينا؟»

لا تجيب. أليس لديه ما يقوله لها غير ذلك؟ ألا يستطيع، قبل أيّ شيء، أن يبادر بحركة وادعة لمداعبَة وجهها؟ أنْ يُعانِقها بصمت؟ أو حتى، يمدّ لها بعض الماء بعطف؟ أهذا هو السؤال الوحيد الجدير بالطرح؟

«من أجل أن يُحسمَ كلّ شيء، كانو»، تُجيبُ بجفاء.

ينظرُ إليها. تُدركُ أنّها عاجزة عن معرفة ما يُفكّر به، ما يعتَملُ في داخله، عاجزة عن القول إذا كان ما يشعر به في تلك اللحظةِ حبّاً أم اشمئزازاً.

«أوَما كانت الحياة هانئة لو عشناها معاً، كانو؟» تسألُ بتردُّد.

وذلكَ ليسَ مُحاولةً منها بأنْ يعود إليها –فهي تعلم ما الذي تُشبهُهُ مُنذ أنْ قيّدت بذاكَ الوتد: بهيمة شعثاء، تفوحُ منها رائحة العرق والإرهاق الكريهة–، ولكن لترى إنْ كانَ في داخلهِ ذكرى عن الأيّام الماضية، أو ربّما، لمجرّدِ أنْ تمحو كلّ ما يحيطُ بهما: القذارة، الوتد، أليكا، أذيّة البشر، كلّ شيء، والبقاء سعيدين، لبرهة، داخل حريّةِ ماضيهما.

«لماذا توجّهينَ لي هذا السؤال؟» يُجيبُ ببرود.

يتردّد جوابهُ في داخلها كصفعة تلقتها للتوّ، ولكن لا يهم، تُحاول منْ جديد:

«ألم نكن سعداء، قبلَ حدوث كلّ ذلك...؟» وإنْ هي تَطرحُ السؤال، فمنْ أجل أن يمضي معها على دروب الماضي، عند جداولِ المياه في موسم الأمطار حيث كانا يلهوان غافلين عن سوء الطقس.

«قبلَ حدوث كلّ ذلك... يكرّرُ، مقطّباً عابساً. قبلَ موت أخي، قبلَ موتِ أبي؟ قبل الدّم الذي زحفَ دون انقطاع على قبيلتي؟ لم أعد أعرف سالينا، «قبلَ حدوث كلّ ذلك» أصبحَ ينتمي لزمنٍ غابر، ينتمي إلى عالم أغرقتِهِ في الدم.»

تَعبسُ وينبضُ الغضَبُ في عروقها. حاولَت على قدْر ما استطاعت وهو يترفّع عنها، يهينها. فتبصقُ بدورِها إذْ لا شيء بوسْعها غير ذلك.

«ولكنَّ سعادتكَ حاضرة، أليسَ كذلك؟ تُجيب. أولادك، سُلطتكَ الجديدة، هذه الثقة البادية على محيّاك دون حتّى أن تلحظَ ذلك، كلّ ذلكَ حاضر وتعلمُ جيّداً أنَّ ذلك كلّه ولدَ من حياتي التي جرى التضحية بها. لتكونَ سعيداً كما هو حالك اليوم، لزم إحراقُ حياتي.

– أنا لم أفعل شيئاً، سالينا. أنتِ بنفسِكِ لطخت نفسَك بالدم إرضاء لرغبتكِ في الانتقام.

– لم تفعل شيئاً، تماماً... قط. لا حين شدّني أخوك من شعري ليمتلكني، ولا حين بصقت أمك في وجهي حينَ طلبتك منها. لم تفعل شيئاً لمّا نفتني قبيلتك برمّتها. كان هناك قصّة كانو ولم تحارب من أجلها.

– أترين، سالينا، ما عاد بوسعنا حتّى التكلّم معاً، ما عاد بوسعنا حتّى أن نفهم بعضنا. بيننا الكثير من الدم.»

وقبلَ أن تُجيب بأيّ شيء، يتراجَعُ خطوةً إلى الوراء، يرمقها للمرّة الأخيرة ويهمِسُ: «وداعاً، سالينا» ثم يستدير على عقبه. كانت تعرفُ أنَّ الأمر سينتهي على هذا النحو، تعرفُ الكلماتِ غير المجدية التي لن تفعلَ سوى جرحهما غير أنّها كانت تتمنّى أنْ يطيلَ مكوثه قليلاً، أنْ يمكثَ ولو بصمت، «دعني أنظر إليك، كانو، حتّى إذا كنتَ توليني ظهرك، دعني أنظر إليك، لأنّنا نحن الاثنين نعلمُ أنّها المرّة الأخيرة».

تنقضي الساعات. تتمنّى أنْ تموت، أنْ ينتهي كلّ شيء، في العمق هي أتت منْ أجل ذلك. لماذا بقيت على قيدِ الحياة إلى الآن؟ من أجل أنْ تبكي؟ ما عادَ لديها دموع. من أجل أنْ تنزفَ؟ ما عاد الضربُ يؤلمها. أفرغتها الحياة وأنهكتها. تعودُ الضباع وهي على هذه الحال، في الساعة التي تغطّ فيها القرية بالنوم، تقتربُ الحيوانات. في البداية اثنان، ثم ثلاثة، ثم أكثر. وعندَ ساعةِ الاستيقاظ، حين يمرُّ أوائل الجوار أمام عمود تعذيب سالينا، يجدون سبعة ضباع مُمدّدة حولها بما يُشبه دائرة. وسالينا لابثة بلا حراك، مُتكئةً على عمود الخشب ورأسها مُتّجه نحو السماء، وتتمتم بأناشيد ذات كلماتٍ غير مسموعة. ما عادَ الأولاد يجرؤون على رمي السجينةِ بالحجارة، إذ يخشونَ ردَّ فعلِ الحيوانات. «أتت لتفترسها» تقولُ بعض النسوة، «النهاية تقترب» تُجيب أخريات. المسنون يتذكّرون وصولَ سالينا ويقولونَ إنّها سوف ترحل من جديد كما أتَت، يقولون إنّه كان ينبغي تركها للضباع منذ اليومِ الأوّل، إنّ الحيوانات أتت لتأخذ ما هو مُستحقّ لها. ومع ذلك لا يقترب أيّ حيوانٍ منها أو يحاول عضَّها. وإن فعلَ فلن تحاول أن تدافع عن نفسها، ستسلم نفسها للافتراس، هذا ما تنتظره مُنذ زمنٍ مديد... غير أنَّ الضباع تطوّقها كأنّما لتحميها من البشرِ وغلّهم. أخيراً، في اليوم الموالي، تظهرُ زمرة منَ المحاربين أرسلها كانو. يتوقَّفُ الذي يرأسهم حين يصلُ إلى حدّ الدائرة التي تحيطُ بالعمود، ويتكلّم بصوتٍ مرتفع ليعلن أنّه، وفقاً لمشيئةِ كانو

دجيمْبَا، ابن سيسوكو، سيُعفَى عن سالينا. «بحكمته الواسعة، يقولُ بصوتٍ عال، قرّرَ كانو عدم إسالةِ دم إضافيّ، ولكن حفاظاً على كرامة الموتى وعدَم إهانتهم، حُكمَ عليك سالينا بالنفي. قدمكِ لن تطأ يوماً أراضي دجيمْبَا، لن يلفظَ اسمك هنا أبداً.» تُصغي إلى كلماتِ الحارس وتدركُ أنّها كلمات كانو، تحاول أنْ تتخيّله وهو يقولها لها. «بمشيئتي سالينا لن تقفي أمامي بعد اليوم. لن يكون لك، وحتّى آخر أيامك، غير السيرِ المضني.» يقتربُ الحرّاس ببطء، محترسين بأنْ تدعهم الضباع يمرّون. يفكّونها، يحرّرونها من قيدها، ثم يجلسونها. لا تقوى على الوقوف لشدّة وهنها، فيسندونها ويساعدونها على خطواتها الأولى مبتعدينَ معها عن القرية. «بمشيئتي، سالينا، لن تعرفَ هذه الدروب آثار خطواتك بعدَ اليوم أبداً...» يتقدّم الرتل على نحوٍ مُتعثر، في كلّ مرّة تسقطُ فيها يُنهضُونها ثانية. تتبعهم الضباع، على نحو غريب، مثل حيوانات أليفة مُرافقةً الفرقة، ولا تبتَعدُ إلّا بعدَ الوصول إلى حدود المملكة حيث تختفي، كأنّما أرادت التأكّد فقط أنّ البشر لا يضمرون شراً لسالينا. عندما يصلون تخوم أراضي دجيمْبَا، يُخرج المحاربون رماحاً طويلة، وبوكزات صغيرة على الخصرِ وعلى ربلتي الساق يجبرون سالينا على المضيّ بمفردها إلى أنْ تخرجَ من حدُودِ المملكة مُحاذرينَ ألّا تقفلَ عائدة. «بمشيئتي سالينا لن... بعد اليوم...» فتتقدَّم، مُستعيدةً قوّةَ السير، بتريث، وتدخلُ منفاها الثالث.

وهكذا، مع الهيئة التي تختفي في الصحراء، كان ينبغي أنْ ينتهي كلّ شيءٍ؛ أنْ تسيرَ سالينا حدّ الإنهاك، ثمّ تموت، ثمّ تجفُّ إلى أن تغدو كومةً صغيرة من العظامِ المبيضّة بفعل الشمس لتنتفعَ منها الضباع كنقطةِ علّام وسطَ شساعةِ ميدان صيدها. غيرَ أنَّ فارساً يتبعها. لا تتنبهُ إليه مباشرة، لا تلتفت، تواصلُ سيرها قُدُماً على وقعِ إرهاقها البطيء. في اليومِ الثاني من تيهها، يصِلُ الفارسُ إليها، يتجاوزها ويترجّلُ أمامها. ترفعُ سالينا رأسها، وصلَ بها الإنهاك بعيداً إلى حدّ لم يبق معهُ رمق على الاندهاش، مُجرّد نظرةٍ تلقيها على الفارس محاولةً فهم سبب وجودِه. إنّها امرأة، تستغرق وقتاً

لتتعرّف عليها، تبحثُ في ذهنها المخدّر عن المكان الذي رأتها فيهِ ولكن بلا جدوى. تتنبّه الأخرى لذلك فتعرّف عن نفسها: «أنا أليكا، ابنة سالْلميّه، زوجة كانو.» تنزعُ الوشاحَ الذي يُغطي شعرها ويقيها من الشمس. تُخرج قِرْبة جلديّة وتقدّمها إلى سالينا لتشرب، ثمّة ثِقل بحركةِ سالينا، تُرطّبُ حنجرتها. وبعدئذ تتكلّم أليكا.

«ما أنا مُقدِمة على فعله، سالينا، لم تفعله امرأة قبلي.» تتكلّم وصوتها يفضَحُ انفعالاً تحملهُ معها منذ أن غادرت القرية. «سيبقى هذا اليوم بالنسبةِ لي جرحاً لا يندَمل. ولكن لا خيار أمامي، أشعر بذلك...»

تُصغي سالينا وقد اكتسَت عيناها بريقاً جديداً.

«طلبتُ من كانو أنْ يروي لي قصّتك، سالينا. لم أقاطعه قطّ، إلّا للاستفسار عن تفصيل إضافيّ حين يبدو لي على عجالة. أجل، لقد خسرت. جسدُك اليوم باستنفادِهِ وتغضّناته يُفصِح عن ذلك. لقد تعرّضتِ للإهانة، ولم يتبقَّ لك شيء، أعلَم ذلك. وهذا كان من شأنهِ أن يبهجني، لأنَّ آل دجيمْبَا في صفّ المنتصرين وأنا واحدة منهم. جميعهم يتبسّمون حين يردُ اسمكِ إذ يعلمونَ أنّه لم يعد لديكِ ما يخيفهم غير أنَّ اعتقادهم خاطئ. إنّي أعلَمُ أنَّ الحرب لا تنتهي حقّاً إلّا إذا قبلَ المنتصرُ أنْ يخسرَ بدوره. وهذا ما دفعني للقدوم، سالينا.»

تَصمتُ برهة. وسالينا لا تنبسُ بحرفٍ ولا تفهم ما الذي سيحدث. تُخرجُ المرأةُ الشابّة من تحتِ ملاءاتها، برفق، مولوداً جديداً، وتضعهُ في جوفِ ذراعيها.

«إنّه آخر ابن أنجبته سالينا، ابن أمّ محبّة. إلّا أنّي جلبتُهُ لكِ لأنّه ينبغي أنْ يحصلَ عطاء بين سالينا وآل دجيمْبَا، لا سبيل غير ذلك ليتوقّف كلّ شيء. أتيتُ أعطيكِ ولدي، ستأخذينه، وتعتنينَ به، ستربينه كأمّ له. خذيه، سالينا، سأفتقده إلى الأبد، وكذلكَ كانو. لن يمضي يوم دونَ أن نفكّر فيهِ وفيكِ، وهذا مُنصِف، فحينها لن يكون هناكَ غطرسة، ولا من أيّ طرف، وإنّما خليط متساوٍ من الابتسامة والدموع. خذيه، سالينا، خذيه لأنّني أشعرُ بهذه

اللحظاتِ أنّه ليسَ لديّ القوّة الكافية على نزعهِ من بين ذراعيّ. لم أمنحهُ اسماً، أنتِ ستفعلينَ ذلك. خذيه، سالينا، وتذكّري عطاءَ أليكا.»

تمدّ سالينا ذراعيها برفق وتأخذ برقّة القِماط الذي يلفّ الطفل، تشعرُ بوزنه في جوفِ ذراعيها وتبتسم، وعلى نحوٍ غريزيّ تضمّه إليها وتبكي كما لم تفعل مُنذ دهر. ثمّ، مُتردّدة، تَنزعُ قلادَة كانت تُخفيها من الغبارِ تحتَ الخِرقِ التي ترتديها وتقدّمها إلى المرأةِ الشابّة.

«في المقابل، ليسَ لديّ غير هذه أقدّمها لك أليكا: هذه، التي ليست شيئاً أمام الطفل الذي تهبينني. ولكن، على هذا النحو ستدفنُ دماءُ الماضي. هاكِ آخر فقرة لسيسوكو، لتعمَّ السّكينة. الآن وبينما أقدّمها لك، تبدو لي تافهةً وبعيدة. سامحيني. أقبلُ الحياة التي تقدّمينها لي. سأعتني بولدك -لأنّه سيظلّ ولدك إلى الأبد، أليكا. حين سيكبرُ، سأرى ملامحكِ تظهرُ على وجهه وذلكَ سيكون حسناً، إذ سيكون أمام بصري حينها وجه حكمتك. امضي، أليكا، ما تفعلينهُ لم تفعله أمّ قطّ. سوفَ أعيش، أقسم لك بذلك. لا تُعيري بالاً لجسدي المتدَاعي وشدّة إنهاكي. كنت أريدُ أن أموت لكنّ كلّ شيء تغيّر. سوف تكون الصحراء مملكتي، سوف أعلّمه كلّ ما أعرفه. ستغدو النجوم عرّابهُ والضباع حرّاسه. سيغدو رجلاً شريفاً ونزيهاً. أقسمُ لكِ بذلك. امضي، أليكا، أقبل بهذا الطفل الذي تُعطينه لي ولسوفَ أقصّ عليه ما فعلت، القوّة التي كنت عليها، لن أخفي شيئاً ليعرفَ أنّه ابن لأمّين ولسلامٍ أبرم، الابن الذي دفنَ الدم القديم. سوف أقول له إنّ أليكا هو اسم العطاء. وسوف يعيش، متسامحاً وشريفاً، أينما حلّ أو ارتحل.»

بتريثٍ، تمتطي أليكا ركوبتها ثانيةً محاولةً أنْ تكتم نشيجها الذي يُطبق على صدرها، وتُقفل عائدة أدراجها ببطء. ترمقها سالينا وهي تختفي، وتتركُ حياةً ظنّت أنّها اختَفت تعلو في داخلها. في تلكَ اللحظة، تعلمُ أنّ شيئاً يبتَدِئ. وجوداً يتقاسمه اثنان، حيثُ ينبغي عليها أخيراً أنْ تُعلّم حياةً، وتُطعِمها، وتَحميها.

- X -

جوابُ المقبرة

يوقفُ مالاكا سرده لبرهة ويُجيل النظرَ حوله. حشدُ المراكبِ ساكن في مكانه، وعلى مسافة بضع مئات من الأمتار أمامهم تشخَصُ الجزيرة المقبرة.

«حانَ وقتُ التقدّم إلى الباب»، قالَ المعدّي وفجأةً يجذفُ لينفصلَ قاربهُ وقاربُ سالينا عن الأسطول. يحدّق مالاكا بجدارِ السور متوجساً، ويسأل:

«ماذا ستفعلُ إن فُتحَ الباب؟

– مصيري هو أنْ أرافقَ جثمان أمّك حتّى النهاية»، يُجيبهُ العجوزُ ببساطة.

كلّ شيءٍ بطيء وساكن. يتقدّم الزورقان بسرعةٍ متساوية نحو الجزيرة. يدركُ مالاكا أنَّ تجديفة المُعدّي لم تكن كافيةً على حملهم بعيداً إلى حيث وصلوا. يدركُ أيضاً أنّه لا يجبُ، في هذه الليلة، فهم كلّ شيء استناداً إلى منطقِ العقل. يتقدّم القاربان لأنَّ المقبرةَ تناديهما إليها. بعد هنيهات، حين يغدوانِ شديدي القرب، يبدأ مصراعا البابِ بالتحرّك. يحبسُ مالاكا أنفاسَه، مُتأملاً بكلّ خليةٍ من جسده... أجل، الأبوابُ تُفتَح. المقبرة تقبلُ بسالينا، بالمرأةِ ذاتِ المنافي الثلاثة، التي كانت أمّاً لابنٍ مكروه وابن –غضَب وابن للتكفيرِ عن كلّ شيء، سالينا، المرأة المملّحةُ بالدموع، التي حُكم عليها أن تولدَ وتموت وهي هائمة على وجهها في بقاعٍ مجهولة، تقبل بها الجزيرة المقبرة. ترتَسمُ ابتسامة على وجهِ دارزغار الذي ينهضُ على مهل، وقبلَ أنْ يتمكّن مالاكا من سؤالهِ عمّا يفعل، يقفزُ ببراعة إلى قارب الميتة. وبعد أن يصيرَ على مَتنهِ يجلسُ في المؤخرة، ثمّ ينظرُ للمرّة الأخيرة إلى مالاكا ويهمس:

«أوصلتَ قصّة أمّك إلينا، وحان الوقتُ الآن لِتُنزلَها عن كاهلك، وأتى

دورُ آخرين لكي يحملُوها ويقصّوها. ستُصبحُ مُنذ الآن على شفاهنا، صارت من حكاياتِ المدينة. بوسْعكَ أن تعيش، انتهى الزمن الذي كنتَ تحملُ فيه إرثك. وأتى دورك في أن تذوبَ داخل العالم. الحياة أمامك، سيروي آخرون في يومٍ ما أيّ رجلٍ كنتَ. امضِ، مالاكا، أنتَ تعرفُ جيّداً، وقد شعرتَ في اللحظة التي أنهيتَ فيها حكايتك أنّ كلّ شيء ينتهي وكلّ شيء يبدأ في الآن ذاته.»

ثمّ يستدير ويجلسُ كأنّه يهمُّ إلى التجذيف إلّا أنّه يظلّ ثابتاً بلا حراكٍ بظهرٍ مُستَقيم، حارساً على الجثمان بصمتِ تمثال. يفترق القاربان. يبتَعدُ دارزغار وجثمان سالينا عندَ قدميه. البحرُ هادئ. غدَت أبوابُ المقبرة مُشرّعة على آخرها. تُلحظُ أضواء في الداخل، تَسقي الجزيرةَ شبكةُ قنواتٍ واسعة مثل متاهة ماءٍ ومرمر مُتداخِلين. يجتازُ القارب عتبة الأبوابِ ويغوص موغلاً قدُماً. وما إنْ يصبحَ داخل السور حتّى يبدأ المصراعان بالإغلاق، ببطء. يلبثُ مالاكا بلا حراك، يريد أنْ يراه إلى آخر لحظة. يغوصُ القاربُ أبعدَ قليلاً ثم يختفي في حين تنهي الأبوابُ إطباقها. لسالينا الراحة، أخيراً. لسالينا مدينة بأكملها تقبلُ بها، أخيراً. يبكي، مرتاحاً بأنْ تنتهي هنا رحلة الحياة الطويلة، في تلك الظلمة الغريبةِ التي لن تتأخر أشعة الفجر الأولى من أن تُحيلها ورديّة. يبكي، هو، ابن الأم التي لها اسم من ملح. شرعَ الصيّادون حوله بالغناء، وهم يدقون على طبلات وينفخون في آلاتٍ مجهولةٍ احتفاء بهذا اليوم المقدّس الذي انفتحت فيه المقبرة من جديد. يبكي وهو يفكّر في هويته: الابنُ ذو الأمّين، الطفل الذي وهِب. ويعودُ اسم أليكا على شفتيه في اللحظة التي يقول فيها وداعاً لسالينا، من الإنصافِ أن يُلفظَ، لكي تكونا معاً جنباً إلى جنب في ساعةِ النهاية. يُطبق عينيه ويُقبّلهما في ذهنه، وحين يفتحهما ثانيةً، يرى مالاكا شُعلاً هائلة تتأرجحُ على مهل حوله، إذ أوقدَ كلّ قاربٍ ناراً عندَ مُقدّمه، بمنزلة إشارة فرح. يعلَمُ أنّه، بعد بضع دقائق، ستنفصِلُ المراكب بعضها عن بعض، وتنصرفُ مثل حشدٍ غفير. سيعود كلّ واحد إلى حياتهِ حاملاً معه حكايةَ سالينا. لقد أصبحت واحدة منهم. يشعرُ بالسكينة، يعلَم أنّه لن يكونَ أبداً كما كان. صَحيح ما قالَه دارزغار: في هذه اللحظاتِ

حيث ينتهي كلّ شيء تولدُ أيّام الغد وهو مُستعدّ. فإذن، قبلَ أنْ يعودَ إلى الشطّ، ويذوبَ من جديدٍ داخل العالم ليغدو رجلاً بين الناس ويشيّدَ حياته الخاصّة به، يبقى بضع لحظاتٍ إضافيّة قبالة المقبرة مع حشدِ القوارب الذي خلفَ ظهره، ثمّ يهمسُ «وداعاً سالينا» ويبتسِمُ مُغتبطاً أنّه كان، لزمن، هو مَنْ يَروي.

انتهى

telegram @yasmeenbook

فهرست

مقدّمة 7

يَومُ البدء..... 13

I – القافِلَة 19

II – في منأى عن البشَر 29

III – الجزيرَةُ المقبرَة 37

IV – أوَّلُ الدّماء 49

V – زفافُ ميدانِ المعركة 59

VI – الابن الغضب 71

VII – نزالُ الإخوةِ..... 83

VIII – الفقرة الأخيرة..... 97

IX – المنفى الأخير..... 107

X – جوابُ المقبرة 119